University of Benghazi
Faculty of Education Almarj

جامعة بنغازي
كلية التربية – المرج
ISSN 2518-5845

Global Libyan Journal

المجلة الليبية العالمية

العدد الواحد والخمسون / أبريل / 2021

شعر ابن زيدون من خلال جهورياته وعباديات (دراسة فنية)

مرعي أرحومه جمعة الجالي / قسم اللغة العربية / كلية الآداب والعلوم / جامعة عمر المختار، القبة

University of Benghazi
Faculty of Education Almarj

جامعة بنغازي
كلية التربية – المرج
ISSN 2518-5845

Global Libyan Journal
المجلة الليبية العالمية

العدد الواحد والخمسون / أبريل / 2021

شعر ابن زيدون من خلال جهورياته وعباديات (دراسة فنية)

الملخص:

هدفت هذه الدراسة إلى الكشف عن شعر ابن زيدون من حيث الشكل والمضمون، في البلاط الجهوري بقرطبة، والبلاط العبادي بإشبيلية. ففي هذه الدراسة استعمل المنهج الفني لما فيه من تحليل لمكونات النص الشعري من حيث الألفاظ والتراكيب، وطبيعة الصياغة. وخلص البحث إلى نتائج مهمة منها:

1- قصر ابن زيدون شعره على الملوك والأمراء، وتوزع أغلبه بين بني جَهْور بقرطبة، و بني عباد بإشبيلية، فجَهْورياته قيلت في مرحلة التكوين والتطلع للسلطة والجاه ، وأغلبها قصائد قيلت من السجن يرسل بها إلى أبي الحزم، وإلى ابنه أبي الوليد، وهي قصائد يغلب عليها الاستعطاف والحنين والعتاب، والشكوى من الوشاة، يفخر فيها بأدبه، فهي أقرب إلى مدح ذاته، من مدحهم، وتبدو الأنا في شعره طاغية متكبرة، رافضة ،مفتخرة بذاته، وأحياناً نراها شاكية باكية متذللة.

2- وتبدو العاطفة صادقة في شعره، في البلاط الإشبيلي في فرضي المدح والرثاء.

الكلمات المفتاحية: جهوريات، عباديات، ابن زيدون، شعر

Abstract

The present study aimed to reveal the poetry of Ibn Zaidoun in terms of form and content, in the Jahwery court in Córdoba, and the Abbadi court in Seville. Technical method was used as it analyzes the components of the poetic text in terms of words, structures, and the nature of the formulation. The results showed that Ibn Zaidoun restricted his poetry to kings and princes, and most of it was distributed between Bani Jahour in Córdoba and Bani Abbad in Seville. Ibn Zaidoun's Jahweriat were said at the stage of formation and aspiration for authority and prestige. Most of his poems told from prison which he sends to Abi Al-Hazm, and to his son Abi Al-Walid. These poems are dominated by the tones of sympathy, nostalgia and reproach, and complaints about informants, in which Ibn Zaidoun is proud of his manners. Such poems are closer to praising himself than praising Abi Al-Hazm and his son Abi Al-Walid. The ego in his poetry appears tyrant, arrogant, rejecting, proud of itself, and sometimes we see it crying and humiliating. The results also revealed that emotion appears sincere in his poetry in the Seville court in the praise and lamentation.

Keywords: Johariat, Abadiat, Ibn Zaidoun, poetry

المقدمة:

الحمد لله حمداً يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه، والصلاة والسلام على خير خلق الله سيدنا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد.

يتناول هذا البحث شعر ابن زيدون من خلال جَهْورياته وعبَّادياته، فجَهْورياته هي قصائده التي قيلت في البلاط الجهوري بقرطبة، في ظل أبي الحزم ابن جهور، وابنه أبي الوليد ابن جهور.

أما عبَّادياته، فهي قصائده التي قيلت في البلاط العبادي بإشبيلية . بعد فراره من قرطبة . في كنف المعتضد بن عباد، وابنه المعتمد، فكان عنوان البحث (**شعر ابن زيدون من خلال جهْورياته وعبادياته دراسة فنية**) ولما كان الشعر، تعبيراً عن التجربة، وأنه شعور الإنسان الذي يختلج صدره، نحو شخص معين؛ فإن شعره سيأتي حسب شعوره، بين السعادة والحزن، فقد عاش ابن زيدون أول حياته بقرطبة، وكان أحد مؤسسي الدولة الجهورية، لكن مصالحه الذاتية وتطلعه للسلطة، جعلته يتجرع مرارة المهانة والإذلال في غياهب السجن، إلى أن فر إلى بني عباد بإشبيلية فحظي بالأمن والإكرام، في ظل هذا الملك؛ ولا شك أن الضيم الذي لقيه بقرطبة، والإكرام الذي لقيه بإشبيلية، سينعكس على شاعريته وعاطفته تجاههما؛ ومن هنا فقد تتبعنا في هذا البحث حال ابن زيدون في البلاطين، من خلال التعريف ببني جَهْور، وبني عباد، وأثرهما في شاعريته، من حيث القوة والضعف، والصدق والمجاملة. وسيتم في هذا البحث التركيز على القصيدة المدحية، فهي التي تحدد علاقة الشاعر بممدوحيه. **وتهدف الدراسة** إلى الكشف عن شعر ابن زيدون من حيث الشكل والمضمون، في البلاط الجهوري بقرطبة، والبلاط العبادي بإشبيلية، تكمن **أهمية الدراسة** في تتبع شعر ابن زيدون، ودراسة شخصيته من خلال قصائده، في البلاطين الجهوري والعبادي. وقد تتبعت في هذه الدراسة المنهج الفني لما فيه من تحليل لمكونات النص الشعري من حيث الألفاظ والتراكيب، والصور، وطبيعة الصياغة.

الدراسات السابقة: من أهم الدراسات التي تناولت شعر ابن زيدون، دراسة حسن جاد، (ابن زيدون عصره . حياته . أدبه)، ودراسة علي عبد العظيم، (ابن زيدون عصره وحياته وأدبه)، ودراسة وهب رومية، (شعر ابن زيدون قراءة جديدة)، وكلها دراسات جادة تناولت شعره وعصره؛ إلا أنها تناولته بشكل عام، ولم تفرق بين شاعريته وشخصيته في كلا البلاطين، إلا في جزئيات وإشارات متفرقة، ولذلك سنحاول في هذا البحث أن نتناول شعره وشخصيته، في كل بلاط على حدة، ثم انتهى هذا البحث إلى نتائج أثبتت في نهاية البحث.

المبحث الأول: حياة ابن زيدون وعصره:

ابن زيدون هو أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب بن زيدون المخزومي، ولد بقرطبة سنة 394هـ لوالدين هو وحيدهما، وهو سليل أسرة اشتهر أفرادها بالعلم والأدب، وكانت هذه الأسرة تنتمي إلى أصل رفيع، فهي تنتسب لمخزوم من قبيلة قريش، وهي من القبائل التي وفدت على الأندلس، وتوطنت في جهات قرطبة [1] وكان أبوه فقيهاً ذا مكانة علمية، ودينية محترمة، اهتم به هذا الفقيه منذ نعومة أظفاره، فأحضر له الأدباء، والمثقفين، ووصله بالعلماء والفقهاء من أصحابه، ويعد ابن زيدون من أبرز شعراء الأندلس وكتابها المشهورين، اشتغل بالسياسة وتولى منصب الوزارة والسفارة بين الملوك و الأمراء في عهد ابن

جهور ملك قرطبة حتى أمر بسجنه وظل ابن زيدون يستعطف الملك فلم يعف عنه، ففر من السجن واتصل بالمعتضد بن عباد ملك إشبيلية وصار وزيراً له، ولعل من أسباب لجوء ابن زيدون لإشبيلية دون غيرها؛ أنها كانت ملاذ الفارين من قرطبة، كأبي عامر بن مسلمة، وأبي بكر عبد الله القرشي التميمي، وأبي مروان عبد الملك بن أحمد، فكان بنو عباد يفسحون صدورهم للمهاجرين من قرطبة، كما أدرك الشاعر بذكائه وفطنته السياسية ما تتهيأ له إشبيلية من مستقبل زاهر في عهد ملوك الطوائف، وأن الشاعر قد لمس سقوط قرطبة أمام أطماع المتنافسين كبني عباد.

أسهم ابن زيدون بدور رئيس في "نشأة الدولة الجَهْوَرِيّة" [2] بقرطبة وإن لم يشارك في ذلك بالسيف والقتال، إلا أنه شارك في توجيه السياسة وتحريك الجماهير، فهو شاعرٌ ذائع الصيت، وأحد أعلام قرطبة ومن أبرز أدبائها المعروفين، حيث سخر جاهه وثراءه وبيانه في التأثير على الناس، الأمر "الذي حدا بأبي الحزم إلى تقريبه واستخدامه" [3] فلقّب بذي الوزارتين "فعلا قدره وأصبح نجم قرطبة الذي ترنو إليه العيون إعجاباً وتهفو له النفوس تقديراً. واقترب النجم من بدر قرطبة ولادة بنت المستكفي وتولدت بينهما علاقة حب وهيام، وشربا كأسها حتى الثمالة، وأصبح ابن زيدون يلعب في مسرح الحب والشعر في مجلس ولادة، ومسرح المناورات السياسية في مجلس أبي الحزم، فكان المسرحان لا يخلوان من نقمة الحاسدين ودسائس المناوئين" [4] فنسبوا إليه، أنه ينوي الانقلاب على أبي الحزم والعودة إلى الخلافة الأموية [5]بعد أن خابت آماله في الدولة الجهورية، فزج به في السجن، ولعل تأليفه لكتاب (التبيين في خلفاء بني أمية) [6]، يوحي بفرضية هذا الاتهام، فكأنه يريد تنبيه الأذهان إلى ماضي بني أمية الوضاء، وما يعزز هذا الافتراض أيضاً، اتصاله بالمعتضد بعقب فراه من السجن؛ ليؤيد(ما سماه المؤرخون بأسطورة هشام المزعوم)، فتلقاه بالترحيب والتكريم، فالمعتضد هو القائم بهذه الدعوة [7]. بعد أن سجن خمسمائة يوم، وفي ذلك يقول:

أَفَصَبْرٌ مِئِينَ خمساً من الأيامِ؟ ناهيكَ من عذابٍ أليمِ [8]

وقوله:

مِئِينٌ مِنَ الأيَّامِ خَمْسٌ قَطَعْتُهَا أسِيْراً؛ وإنْ لَمْ يَبْدُ شَدٌّ ولاَ قَمْطُ

وقد طرز الشاعر خلال هذه المدة أجمل قصائد الاستعطاف والعتاب، إلا أن توسلاته لم تجد نفعاً، بل ازداد ابن جهور إعراضاً وصدوداً عنه، فاشتدت محنته، وازداد ألمه، إلى أن فرمن سجنه إلى إشبيلية، بمساعدة صديقه أبي الوليد بن جهور الذي كان يزوره في سجنه، فقد ذكر ابن بسام أن "أبا الوليد قد انتشل الشاعر من نكبته" [7] فلقي صدراً رحباً عند ملكها فقربه إليه "وغمره بعطفه، ولكن نفسه كانت تجذبه إلى قرطبة موطن صباه ومسرح هواه"[7] فاستخفى بضاحيتها الزهراء، وبعث إلى أستاذه أبي بكر مسلم بن أحمد، برسالة راجياً منه أن يبذل شفاعته لدى أبي الحزم بن جهور، فعفا عنه وعاد إلى قرطبة، ولم تمضِ بضعة أشهر حتى توفي الأمير، وتولى ابنه أبو الوليد بن جهور الحكم، الذي وصف بأنه كان" حافظاً للقرآن العظيم مجوداً لحروفه كثير التلاوة له"[9]، فبدأت حينها صفحة جديدة من حياة الشاعر، ينعم فيها بالحرية والحظوة والمكانة الرفيعة. ولكن خصومه ومنافسيه لم يكفوا عن ملاحقته بالوشايات والفتن والدسائس حتى اضطر إلى مغادرة قرطبة إلى إشبيلية، فأحسن المعتضد بن عباد إليه وقربه، وجعله من خواصه وجلسائه، وأكرمه وغمره بحفاوته وبره [5]. فأغلب شعره قيل في هذين البلاطين، ولا شك أن ما

وجده فيهما من ضيم أو حفاوة ينعكس على نفسيته وعاطفته، وبالتالي ينعكس على شعره، ففي مملكة بني جهور بقرطبة درج ابن زيدون وتربى وظهر فضله، وفي مملكة بني عباد قضى بقية أيامه في العز والكرامة، وكان بها وفاته في محرم سنة 463 هـ .

المبحث الثاني: التعريف ببني جهور وبني عباد:

لما انقطعت دعوة بني أمية ولم يبق من عقبهم من يصلح للإمارة ولا من تليق به الرئاسة، اختار أهل قرطبة أبا الحزم جهور بن مُحَّد ملكاً عليهم، فكان أول من قام منهم بالأمر باختيارهم، يقول ابن حيان:" واجتمع الملأ من أهل قرطبة على تفويض أمرهم لأبي الحزم جهور وعددوا من خصاله ما لم يختلفوا فيه، فأعطوا منه قوس السياسة باريها، وولوا أمر الجماعة أمينها"[10] وكان ابن جهور على سنن الفضل يعود المرضى ويشهد الجنائز، ولا يحتجب على الناس، ومتى سئل قال:" ليس لي عطاء، ولا منع، هو للجماعة وأنا أمينهم... وقد أعطى السلطان حقه من النظر ولم يخل من نظره لعيشه حتى تضاعف ثراؤه، وصار لا تقع عينه على أغنى منه، وحاط ذلك كله بالبخل الشديد، والمنع الخالص، اللذين لولاهما ما وجد عائبه فيه طعنا، ولكمل لو أن بشراً يكمل" [11].

أما بنو عباد فتكاد تتفق المصادر على أنهم من العرب الداخلين إلى الأندلس مع جند بلج بن بشر، إلا أن بعض الروايات تنسبهم إلى النعمان بن المنذر بن ماء السماء آخر ملوك الحيرة[12]، وقد شكك الكاتب دوزي في نسبتهم لملوك الحيرة، ويراها من صنع الشعراء بإيعاز بني عباد وبهذا النسب كانوا يفتخرون ويمدحون، يقول ابن اللبانة [11]

من بني المنذرين وهو انتساب   زاد فخـره بنو عبـاد
فتية لم تلد ســواها المعالي   والمعالــي قليلة الأولاد

ويقول ابن زيدون:

أَنِّي رَأَيْتُ المُنْذِرَيْنِ كِلَيْهُما   فِي كَوْنِ مُلْكٍ لم يُحِلْهُ فَسَادُ

وقد كان المعتضد بن عباد شديداً حازماً قاسياً داهيةً، جميل الصورة، شاعراً "سخي اليد غزير العطاء وبخاصة على الشعراء[6]"، وهو القائل:

لعمرك ما الإسراف فيَّ طبيعة ولكن   طبع البخل عندي كالحتف

ومن مآثره أنه كان يتلذذ بفتكه حتى أنه اتخذ من رؤوس أعدائه أواني للأزهار في فناء قصره، تدار عليه كؤوس الراح، مستمتعاً بقبض الأرواح [4]، وقد طوى حياته في حروب متتالية [12]. ففي 441هـ، لجأ إليه ابن زيدون فاحتفل به احتفالاً رائعاً، "فأحمدَ فِرارهُ، ووجد مثواه وقراره، وخُصَّ من اصْطِفاءِ المعتضِدِ، بأبدعَ وِدادٍ، وحلَّ منه بناظِرٍ وفُؤادٍ، فألْقَى بِيَدَيْهِ مقاليدَ مُلْكِهِ وزِمامِهِ، واسْتَكْفى لَهُ نَقْضَهُ وإبْرامَهُ، فَفَازَ قِدْحُهُ، وما جازَ عبَّاداً ثَنَاؤُهُ ولاَ مَدْحُهُ، ومازالَ رائحاً في العُدَّةِ وغادِياً، ولائحاً في سمائِها وبادِياً، لمْ يَتَقَلَّصْ لَهُ ظِلٌّ، ولا أَضْحَى لَهُ أَمَلٌ مُسْتَظِلٌّ، إلى أنْ أدْرَكَهُ حِمَامُهُ"[2]، مدح المعتضد زهاء عشرين عاماً، وفي سنة461 هـ تولى المعتمد الحكم، وكان يشبه بهارون الواثق بالله من ملوك بني عباس ذكاء نفس، وغزارة أدب، وقد ورث عن أبيه حدة

الشهوة، وشدة الكلف بالخمر والنساء وسرت في روحه فنون الأدب فكان يهتز للشعر ويصوغه ويترجله ويسخو في تكريم رجاله، ويكثر من مجالسة الشعراء، فوجد فيه ابن زيدون أميراً كريماً، وصديقاً مؤاخياً، وصنواً له في الأدب، فمدحه معجباً به، محباً له، مطمئن النفس إليه. دارت بينهما مطارحات شعرية عذبة تكشف عن ودٍّ غامر وصداقة وطيدة، وعاطفة جياشة، وقد جاءت أغلب قصائده فيه مديحاً خالصاً، وقد بدأ بعضها بالحنين إلى قرطبة التي يباح دمه دونها؛ لسوء أثره في ملكها وواليها "وقبائحَ كانَ يَنْسِبُها إليه ويُواليها، أحْقَدَتْ بني جهورَ عليه، وسدَّدت أَسِنَّتَهُمْ إليه"[2]، ولعل هذه المطالع التي يغلب عليها الحنين إلى قرطبة؛ ما حمل المعتمد على التفكير في فتحها [4] ففي سنة 462هـ هاجم المأمون بن ذي النون ملك طليطلة قرطبة رغبة منه في احتلالها فاستنجد ملكها أبو الوليد ابن جهور بالمعتمد فأرسل إليه جيشاً بقيادة أحد أبنائه، فانسحب جيش المأمون، و نزل جيش بني عباد في ضاحية المدينة وأخذ يتصل بأهل قرطبة حتى ثار هؤلاء على ابن جهور واستولى الجيش الإشبيلي على قرطبة ونادى أهلها بالمعتمد ملكاً عليها "[4] فعاد الشاعر إلى قرطبة مع المعتمد قرير العين وكان عند ظن أميره به، فبذل جهده في خدمته، وأخلص له، وكان خير عون له في فتح قرطبة، ثم وقعت الفتنة في إشبيلية، فسعى المعتمد لإخمادها بتسيير جيش ضخم بقيادة أحد أبنائه، وأمر ابن زيدون أن يسافر مع الجيش، لما كان يعهده فيه من ذكاء وفطنة، وما كان يعرفه من حب أهل إشبيلية له، فنجح الجيش في اخماد الفتنة هناك؛ إلّا أنّ ابن زيدون قد أصابه المرض وأوهنته الشيخوخة، فما لبث أن توفي بعد أن أتمّ مهمته في الخامس عشر من رجب سنة 463هـ عن عمر بلغ نحو ثمانية وستين عامًا [5].

عاطفة ابن زيدون من خلال البناء الفني لقصيدة المدح: مدح ابن زيدون أربعة أمراء هم: (أبو الحزم بن جهور)، وابنه (أبو الوليد بن جهور)، أميرا قرطبة، ثم (المعتضد بن عباد)، وابنه (المعتمد بن عباد) أميرا إشبيلية، فهؤلاء هم الممدوحون الأساسيون عنده، أما باقي من مدحهم فكانوا وسطاء له عند بني جهور حين تتأزم أموره، ولا يتجاوز مدحه لأي منهم القصيدتين في الغالب، ولهذا أطلق عليه شاعر البلاط أو شاعر القصر.

1 . المطلع والمضمون:

تقلد ابن زيدون في أول الأمر الوزارة في دولة أبي الحزم بن جهور، إلى أن وقع له طلب صيره إلى الاعتقال، فتركت هذه المحنة في نفسه أثراً عميقاً؛ لأن شعره كان تصويراً صادقاً لمعاناته وآلامه، ولما كان البناء الفني لقصيدة المدح مرتبطاً بتقاليد فنية معينة استقرت ملامحها منذ العصر الجاهلي؛ لم تتبدد هذه التقاليد الفنية بتغير البيئة الزمانية والمكانية، بل ظلت تفرض نفسها في عصور الأدب المختلفة، رغم التجديد الذي طرأ على المقدمة، منذ العصر العباسي، والأندلسي، حيث تعددت انماط وأشكال مقدمة قصيدة المدح، فبدأ الشعراء قصائدهم بالمقدمة الغزلية، أو الطبيعية، أو الخمرية، وبكاء الشيب، ومقدمة الحكمة، والتعبير عن هموم الذات، وآلام النفس، وشكوى الدهر،[3] وغيرها، واهتموا بالانتقال للغرض الأصلي، وكذلك ختام القصيدة، وسنبدأ في هذا البحث بتتبع البناء الفني لمدائح ابن زيدون في أبي الحزم، والتي يغلب عليها الاستعطاف، ولعل من أولى قصائده فيه قصيدته البائية المكونة من اثنين وأربعين بيتاً، وزعها الشاعر على أربعة موضوعات، أحد عشر بيتاً الأولى في الغزل، وأربعة في الشكوى، ثم انتقل إلى

مديح ابن جهور في نحو سبعة عشر بيتاً، وباقي القصيدة في الحديث عن نفسه ومكانته والوشاة ودسائسهم، يقول في مطلعها:

هذَا الصَّبَاحُ عَلَى سُرَاك رَقِيباً   فَصِلِي بِفَرْعِكِ لَيْلَكِ الغِرْبِيبَا

ولديكِ . أمثالَ النُّجُومِ . قلائدٌ   أَلِفَتْ سمــــاءِكِ لَبَّةً وتريْبَا

ثم ينتقل شاكياً ألم الوحدة وسوء المعاملة ،التي شيبت رأسه قبل أوانه، وأن هذه المحنة لو ألمت بجبل شاهق لانهال وصار كثيبا مهيلاً، في إشارة إلى الهول العظيم الذي سيكون عليه الحال يوم القيامة للأرض والجبال، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا﴾ المزمل: الآية14، فيقول:

مالي ولِلأيَّامِ؟ لَجَّ مع الصبا   عُدوانُها فكسَا العِـذار مشيبا

محقت هِلالَ السِّنِّ قبلَ تمامِهِ   وذوى بها غُصنُ الشّبابِ رَطيبا

لأَلمَّ بي ما لو ألَمَّ بشــــاهقٍ   لأنهال جانبه فصــــار كثيبا

وبعد هذه الشكوى ينتقل إلى استعطاف أبي الحزم، بنقلة معيبة واضحة الطفرة والانتقال، في نحو سبعة عشر بيتا، تكاد تخلو من العاطفة، والصدق والعمق، وقد تفنن الشاعر فيها بالبديع اللفظي فلا يكاد يخلو بيت له من جناس أو طباق، مشيراً إلى بعض الآيات القرآنية، أو أبيات سابقيه من المشاركة" إذ لا شأن للعاطفة في هذا المضمار وإنما الشأن للبلاغة والمقدرة الفنية"[3]، واصفاً ممدوحه بالزهد والتقوى وصحة المتاب:

وَلَئِنْ عَجِبْتُ لأنْ أُضَامَ "وَجْهَوَرٌ"   نِعْمَ النَّصِيرُ لقد رَأَيْتُ عجِيبَا

مَـلِكٌ أطَــــاعَ الله مِنْهُ مُوَفَّقٍ   مَــــا زَالَ أَوَّابًا إِلَيْــهِ مُنِيْبًا

يَأتِي رِضَاهُ مُعَــادِيًا وَمُـــوَالِيًا   وَيَكُـــونُ فِيهِ مُعَاقِبًا ومُثِيبًا

ثم ينتقل إلى الحديث عن نفسه وأدبه، والشكوى من الوشاة ودسائسهم، فتبرز الأنا واضحة في باقي القصيدة فيقول:

كَانَ الوُشَــاةُ . وقَدْ مُنِيتُ بإفْكِهِمْ .   أسْباطَ يَعْقُوبٍ وكُنْتُ الذِّيْبَا

أنا سيفك الصَّدِئُ الذي مهما نشأ   تُعِدِ الصّـــقال إليه والتَّدريبا

ويضرب الشاعر على هذا الوتر في أكثر مدائحه لأبي الحزم، مازجاً استعطافه، بتعداد مآثره وصفاته في شيء من الفتور، وطبيعي ألا نرى الشاعر مندفعاً في مدح أميره بعد أن ألقى به في السجن،[3] وتتصف هذه القصائد التي تتعدد فيها الموضوعات، بالنفاق والخداع، وأنها تخلو من" تجارب حقيقية، لذا لا تحس فيها بحرارة الانفعال والمشاركة الوجدانية، مما حوته من نفاق ومبالغة في وصف الممدوح بصفات لا توجد فيه، مما نأى بها عن الصدق في المضمون والتصوير، وبالتالي أتت غير معبرة عن إحساسات صادقة ومشاعر حقيقية"[13]، وأرسل إليه أيضاً:

ألمْ يأنِ أنْ يَبْكِي الغَمامُ على مِثْلي ... ويَطْلُبَ ثأرِي البَرْقُ مُنصَلتَ النصْلِ

وهلّا أقامَتْ أنْجُـــمُ اللّيلِ مأتمًا ... لتَنْدُبَ في الآفاقِ ما ضَاعَ من نَثلي

ولوْ أنصَفَتني وهيَ أشكالُ همّتــي ... لألقَتْ بأيـدي الذّلّ لما رأتْ ذُلّـي

ولافْتَرَقَتْ سبعُ الثُّريَّا، وغاضَــها ... بمطلَعِها، ما فرّق الدّهرُ من شملــي

فاستهل الشاعر القصيدة بالتماس الرحمة من كائنات جديرة بمشاركته عواطفه ومشاعره، فالغمام آن له أن يبكي مصابه، ويطالب البرق بحقه المهضوم، وتندبه أنجم الليل ولو أنصفته لتهاوت من أبراجها لما ناله من ذل وهوان، ولافترقت كواكبها السبعة، ثم ينتقل مفتخراً بآدابه وعلمه، رغم أن الليالي التي طالما تزينت بآدابه، حاربت مواهبه ومطامحه، وكأن الزمان يبيت على ثأر من ذوي الإفهام والعقول، حتى تمنى جهله إرضاءً لأعدائه، وتبديداً لغيظهم.

لعمرُ اللَّيالي! إنْ يكن طالَ نزْعها ... لقد قرطست بالنَّبلِ في موضـع النُّبلِ

تحلَّت بِآدابــي، وإنّ مآربـــي ... لَسانِحـةٌ في عرضِ أمنيـــــةٍ عُطـلِ

أُخَصُّ لفهْمي بالقِلــى، وكأنَّمّا ... يبيتُ، لذي الفَهمِ، الزّمانُ على ذَحلِ

وأجفى، على نظمي لكلِّ قِلادةً، ... مُفَصَّلَةِ السِّمطَين، بالمنطــقِ الفصْـلِ

ولو أنّني أسطيعُ كَيْ أُرْضِيَ العِدا ... شَرَيْتُ بِبَعْضِ العِلمِ حظّاً من الجهـلِ

ولعل هذا الفخر ما جعله يفشل في استمالة قلب الأمير، واستدرار عطفه؛ لأنه "كان يخاطبه على شيء من الاعتداد بأدبه، ويفاخر الشعراء ويساميهم [14]، وقد توالت صور الفخر وارتبطت بأدبه، مصورةً "حالة الإهمال التي عاشها لدى بني جهور، وقد جعل من هذا الفخر معادلاً نفسياً لحالته السيئة، وكأنه بهذا الفخر يحاول تخفيف حدة الألم التي يعيشها، ولذلك برزت الانا متمثلة في الأفعال المضارعة للمتكلم والضمائر؛ اثباتاً لنفسه، ولذلك يرى الركابي: "أن كل قصائد ابن زيدون التي أرسلها يستعطف بها أبي الحزم، هي أثر ذلك الشقاء الذي لقيه في سجنه، وصورة من صور البؤس الذي حرك شعوره وفتق لسانه، وأثار في نفسه عواطفه الشعرية المظلمة المملوءة هماً وغماً"[3]ثم حاول الشاعر أن يخفف عن أمه مصابها به، بعد زيارتها له وقد خانتها دمعتها . متمثلاً حالة أم موسى عليه السلام إذ رمت بطفلها في اليم، ويوكل أمرها بابنها إلى الله أحكم الحاكمين، وأنه لابد لهذه المحنة من نهاية فيخاطبها:

أَمَـقْتُولَةَ الأجْفَانِ مَالَكِ وَالِهاً ... ألَمْ تُرِكِ الأيَّامُ نَجْماً هــــوَى قَبلِـــــي؟

أقلِّي بُكاءً، لستِ أوَّلَ حـرّةٍ ... طوتْ بالأسى كشحاً على مضضِ الثُّكلِ

وفي أمّ مُوسى عبرةٌ إذ رمتْ به ... إلى اليمّ في التابُـوتِ فاعتَبِرِي واسْلـــــي

ولله فِينا عِلْمُ غَيْـبٍ، وحَسْبُنا ... به عند جوْرِ الدّهـرِ من حَكَمٍ عــــدْلِ

وبعد هذه المقدمة الطبيعية التي بلغت أربعة عشرة بيتاً، ينتقل الشاعر إلى المديح، مشيدا بتقوى ممدوحه وكرمه على سبيل المبالغة، والنفاق، لا سيما أن أبا الحزم قد عرف بالبخل الشديد:

إن رجائي في الهُمامِ ابنِ جَهْورٍ   لمستَكمِ الأسبابِ مُستحْصِدُ الحَبْلِ
هُمامٌ عريقٌ في الكِـــرامِ، وقلَّما   ترى الفَرعَ إلاَّ مُستمِـداً من الأصْلِ
نَهُوضٌ بأعبـــاءِ المروءةِ والتُّقى   سحُوبٌ لأذيالِ السِّيـــادةِ والفضلِ

ثم يشكو سوء حاله ومآله؛ متبرئاً مما نسب إليه، راجياً العفو والصفح، فأي ذنب فعلته يستحق هذا العذاب؟ موجهاً الأسئلة المتتابعة لممدوحه، التي تدل على تبرمه وحيرته، قائلاً: ما بالك أيها الأمير تصغي لأكاذيب الوشاة الواضحة البطلان؟ ومالك تلتمس الأعذار في التخلي عني؟ ، هل أهجوك بعد مدحي لك؟ بماذا أجيب إذا سئلت عنك؟ وأي حيرة تنتاب شعوره تجعله يحشد خمسة عشر فعلاً أمراً في بيت واحد، :

أَئِن زَعَمَ الواشونَ ما ليس مزعَمــاً   تُعَذِّرُ في نصري وتعذِّرُ في خذْلي؟
وأصْدى إلى إسعافِكَ السَّائغِ الجَنــي   وأضْحى إلى إنصَافِكَ السَّابغِ الظِّلِّ
هيَ النَّعْلُ زَلَّتْ بي فهل أنتَ مكذبٌ   لقيلِ الأعادي إنّها زلَّةُ الحِسْـــلِ
أَأَنْكُثُ فِيكَ المِدْحَ مِنْ بَعْدِ قــوةٍ   ولا أقْتَدِي إلَّا بناقِضةِ الغَــزْلِ؟
ولَو أنَّني واقعْتُ عَمْـــداً خَطِيئَـــةً   لَمَا كانَ بِدْعاً مِنْ سَجاياكَ أن تُملي
فلم أستثِرْ حَربَ الفِجارِ ولم أطـع   مسيلمةً إذ قـــال إنِّي من الرُّســـلِ
ومِثْلِي قد تهفو به نشوةُ الصّبــا   ومِثْلُك مَن يعفو، ومَالَكَ مِن مثــلِ
وإنِّي لتنهــاني نُهــايَ عن الـــتي   أشادَ بها الواشي، و يعقِلُني عقلــي
وهلْ لك في أن تشفعَ الطَّولَ شافعاً   فتُنْجِحَ مَيْمُونَ النَّقيبة أو تُبْلي
أجْرِ أشْدِ آمِنْ أحْسِنْ ابدأْ عُدِ اكفِ حُطْ   تَحفَّ ابْسُطْ اسْتألِفْ صُنِ احْمِ اصْطَنِعْ أعْلِ
وَأينَ جَوَابٌ عَنكَ تَرْضَى به العُــلى   إذا سألَتْنِي عَنْكَ ألسِنَةُ الحَفْــلِ؟

ويمضي الشاعر مستجدياً ومستعطفاً شاكياً، مشيداً بأخلاق ممدوحه العالية وأفعاله الحميدة؛ راجياً من كل ذلك العفو والصفح، إلا أنه أخفق في مدحه عندما هدد بانضمامه إلى من يعرف قدره ويعلي مكانته، إذلم يتحقق ما يصبو إليه ويرجوه من عفو، فيقول في آخر القصيدة:

فإنْ تُمْنَ لي منكَ الأماني فَشيمَةٌ   لذاكَ الفَعالِ القَصْدِ والخُلقِ الرَّسلِ

وإلّا جَنَيتُ الأنسَ من وَحشةِ النَّوى   وهَوْلِ السُّرَى بينَ المطِيَّةِ والرَّحلِ

سَيُغْنَى بِمَا ضَيّعت مِنّيَ حافِظٌ   ويُلفى لما أرْخصتَ من خَطرِي مُغْلي

فلم يستطع الشاعر إخفاء عواطفه، وما يعتلج في صدره، فهدده وهجاه في سياق المدح والاستعطاف، وأحيانا يستعرض قوته أمام ممدوحه، واصفاً نفسه بأنه أسد كاسر يسكن ليثب، ويلبد ليفترس، فيقول من محبسه:

إنْ قسا الدّهرُ فللماءِ   مِن الصخرِ انْبِجاسُ

و لَئِنْ أمسيتُ محُبساً   فلِلّيْثِ احتباسُ

ويلبدُ الوردُ السِّبنتي   وله بعدُ افتراسُ

وبعث إليه بقصيدة رائية استهلها بالغزل مجاراة للشعراء الأقدمين، معبراً فيها عن سهاده وأرقه لهجر محبوبته التي يشبهها بالقمر فاختلط غزله بالشكوى من ليل مضى وانقضى سروره وأرجت فيه خمرة النشوة في مجالس أنسه، يشكو قصره متمنياً لو أنه امتد واتصل حتى لو استعار من سويداء قلبه، وسواد بصره فقال مستهلاً:

ما جالَ بعدكِ لحظي في سنا القَمَرِ،   إلاَّ ذكرتُكِ ذِكرَ العينِ بالأثرِ

ولا استَطَلْتُ ذماءَ ليلٍ من أسفٍ   إلاَّ على ليلةٍ سرَّتْ مع القصرِ

ناهيكِ من سهَرٍ برْحٍ، تألّفهُ   شوقٌ إلى ما انقضى من ذلك السَّمرِ

فليتَ ذاكَ السَّوادَ الجَونَ متَّصِلٌ   لوِ استعارَ سوادَ القلْبِ والبَصَرِ

ثم تخلص إلى ليل يقاسيه، ويشكو تطاوله ومعاناته في غياهب السجن الذي أثقل كاهله ومحق هلال السن قبل تمامه، واعتلى الشيب رأسه، قبل أن يبلغ ثلاثين ربيعاً، فقد كان لتجربة السجن التي آل إليها ابن زيدون وبدلت أحواله من العز إلى الذل، ومن العظمة إلى المهانة، وقع أليم على نفسيته، لذا بدأت مظاهر الخوف وإشارات الشكوى وسمة الحزن، تدب في شعره فأحواله بما تحمله من أشجان وآلام تغني السائل عن حاله:

مَنْ يَسْألِ النَّاسَ عن حالي فَشَاهِدُها   محْضُ العِيانِ الَّذي يُنْبِي عن الخَبرِ

لم تطوِ بُردَ شبابي كَبرَةٌ وأرى   بَرقَ المشيبِ اعتلى في عارضِ الشَّعرِ

قبلَ الثّلاثين إذ عهدُ الصِّبا كَثَبٌ   وللشّبيبة غُصنٌ غَيرُ مُهتَصرِ

ها إنّها لَوعَةٌ في الصَّدرِ قادحَةٌ   نارَ الأسى ومشيبي طائِرُ الشَّررِ

University of Benghazi
Faculty of Education Almarj

جامعة بنغازي
كلية التربية – المرج
ISSN 2518-5845

Global Libyan Journal
المجلة الليبية العالمية

العدد الواحد والخمسون / أبريل / 2021

ورغم ذلك وقف الشاعر شامخاً أمام الشامتين الذين قرت عيونهم بمعاناته، مذكرهم بأن السجن لا يعيبه ولا ينقص من قدره، فهو كالأشجار الباسقة التي تعصف بها الرياح، وكالشمس والقمر الذين يكسفان، ويخسفان دون غيرهما من النجوم، وكالسيف البتار الذي يغمد في جفنه:

لا يُهنِئ الشّامتَ المرتــاحَ خاطِــــرُهُ   أنّي مُعَنَّى الأمَاني ضَائِعُ الخَطَــــرِ

هَلِ الرِّيَاحِ بنَجمِ الأرْضِ عاصِفَــــةٌ   أم الكُسُوفُ لغَيرِ الشَّمْسِ والقَمَرِ؟

إنْ طَالَ في السّجنِ إيداعي فلا عجبٌ   قد يُودَعُ الجَفْنَ منصلت الذكــــرِ

ويعجب الشاعرُ كيف يُحَمَّلُ أوزار ذنوبٍ لم يرتكبها، ثم يأمل بتأني أبي الحزم وعفوه في وقت يحذر فيه من تجنيه وعقابه:

وإنْ يُثَبِّطْ أبا الحزمِ الرِّضـــــى قدَرٌ   عن كَشفِ ضُرّي فَلا عَتَبٌ على القَدَرِ

ما للذّنوبِ التي جَاني كبائِـــــرِها   غَيـري يُحَمّلُـــــــني أوْزَارهــــا وزَرِي

مَنْ لم أزَلْ من تأنّيهِ على ثِقَـــــةٍ؛   ولَمْ أبِتْ مِنْ تَجَنّيــــهِ على حَــذرِ

قد كنت أحسبني والنجم في قــــرن   ففيم أصبحــت منحــطاً إلى العفـر

هَل مِن سَبيلٍ ، فماءُ العَتْبِ لي أسِنٌ،   الى العُذُوبةِ من عُتبـاكَ والخَصَــــــرِ

نَذَرْتُ شكرَكَ لا أنسَى الوَفَـــاءَ بِهِ،   إنْ أسفَـرَتْ لِيَ عَنها أوْجُهُ البُشَــــرِ

إن السيـادة بالأعضــــــاء لابسـة   بهاءها وبهـاء الحسن في الخفـــر

لكَ الشَّفاعَـــــةُ، لا تُثْنَى أعِنَّتُـها،   دُونَ القَبُـولِ بِمَقْبولٍ من العُــــذُرِ

وبعد هذا الاستعطاف المتكرر حظي الشاعر بالشفاعة والعفو لا بفضل أشعاره، وإنما بفضل صديقه أبي الوليد، غير أن بعض المؤرخين من نفي هذه الشفاعة، إذ ذكر ابن خاقان أنه "استشفع بأبي الوليد وتوسل واستدفع به تلك الأسنة المشرعة والأسل، فما ثنى إليه عنان عطفه، ولا كف عنه أسنان صرفه هذا مع استعطافه له بكل مقال يسل سخائم الآهاد، واستعطافه له مما يرد الصعب سهل القياد"[2] إلا أنه ينقضه ابن بسام بقوله: إن أبا الوليد "تشفع له وانتشله من نكبته وصيره في صنائعه، ولما ولي الأمر بعد والده نوه به"[7]. ومن أسباب تأخر الشفاعة، والعفو عنه ذكره لهذه الكلمات التي لا تناسب المقام، في تضاعيف قصائده، كذكر الموت في قوله:

يا بَهْجَة الدهْرِ حَيّاً، وهو إن فنيَتْ   حَيَاتُهُ . زِينَةُ الآثارِ والسِّيَرِ

فالشاعر يبوح بما يمليه عليه عقله الباطن مستعجلاً موت الممدوح، وإلا فما الذي جعله يقول . مستعطفاً :(إن فنيت حياته)، وقوله في ختام القصيدة:

نَعِيمَ جَنَّةِ دُنيا، إنْ هيَ انصرَمَتْ   نَعِمْتَ بالخُلدِ في الجَنَّاتِ والنَّهَرِ

وقد يتحول الشاعر في بعض الأحيان إلى الشتم معبراً عما لقيه من إهانة وإذلال واصفاً ابن جهور بالدناءة:

وإن بلاداً هنتُ فيها لأهْوَنُ ومن رامَ مثلي بالدَّنيَّة أدنَأ

ولم يشد الشاعر في أي من قصائده في أبي الحزم بشجاعته وقوته، فهو لم يخض حرباً ضد أعدائه، تستوجب الإشادة، وإنما كان مهادناً مسالماً، لذا فإن الشاعر دائماً ما يصفه بالسلم والحكمة، كقوله:

مُذَلِّلٌ للمَسَاعِي حُكْمَهَا شططاً عليه، وهو العزيزُ النفسِ والنَّفَرِ

وزيرُ سَلْمٍ، كفاهُ يمـــــنُ طَائِرِهِ شؤمَ الحُرُوبِ ورأيٌ مُحصَدُ المِرَرِ

بل كلما اتضحت معالم حرب وفتن، أسرع في وإخمادها، حتى من كانت الحرب عادته داراه بسياسة وحكمة.

أَلَيسَ أبو الحَزْمِ الذي غِبَّ سَعْيِهِ تَبَصّرَ غاوِينَا، فَبَانَ لَهُ الرُّشْـــــدُ

أغرُّ تَمَهّدْنَا بِهِ الخَفْضَ، بَعـــــدمَا أقَضّ عَلَيْنَا مَضْجَعٌ، ونَبَا مَهْـــدُ

لَشَمَّرَ حتى انْجابَ عارِضُ فِتْنَـــةٍ تألَّقَ مِنْهَا البَرْقُ، واصْطَخَبَ الرَّعْدُ

فَسالَمَ مَنْ كانَتْ لَهُ الحَرْبُ عَادَةً وَوَافَقَ مَنْ لَا شَـــكَّ فِي أنَّهُ ضِـدُّ

وأغلب الظن أن ابن زيدون قد مدح أبا الحزم ببعض القصائد الجياد أخلص له فيها، وبعد سجنه تغيرت عاطفته نحوه "فلجأ إلى العتاب المر" [4] فلما "لم تنفع رُقاهُ، ولم يدفع عنه أبو الحزم الذي عوده ورقاه، أضجره ذلك وأحقده، وحل من ارتباطه ما كان عقده، وعاتبهم بأحسن عتاب، ونأى عنهم بجانب من الثقة مرتاب"[2]، وقد عبر عمَّا لقيه من ضروب المهانة والإذلال من القيِّم على السجن، فذابت نفسه حسرةً فقال:

قل للوزيرِ وقد قطعتُ بمدحـــهِ زمناً فكان السجنُ منه ثوابي

لا تخشَ في حقـــي بما أمضيتهُ من ذاكَ فيَّ ولا تـوقَّ عتابي

لم تُخطِ في أمري الصواب موفقاً هذا جـزاء الشاعر الكـــذَّابِ

فالأبيات مؤلمة قيلت تحت تأثير نفسي سيء، فبعد مدحه للأمير، كافأه بالسجن، فيرى أنه جدير بهذا الجزاء؛ لأنه صوره على غير حقيقته من العنف وحب الانتقام، فقال بحرقة:

بني جهورٍ أحرقتُمُ بجفائـكم ضميري فما بالُ المدائح تَعبقُ

تَعُدُّونني كالمَنْدَلِ الَّرطب إنّما تَطِيبُ لكم أنفاسُهُ حين يُحرَقُ

فبنو جهور قابلوا مودته بالجفاء، وأحرقوا فؤاده بإعراضهم عنه على الرغم مما خلعه عليهم من عاطر الحمد وطيب الثناء، فحاله كعود البخور لا تفوح رائحته الطيبة إلاَّ إذا أحرق، فهو يوالي إطراءهم والإشادة بهم وهم يوالون الإساءة إليه، ويعزو اتهام

الوشاة إليه إلى تقدمه عليهم بعلمه الذي أشعل نيران حسدهم، معرضاً بأبي الحزم الذي أصغى لهم وصدَّقهم، فاتهم بأشياء باطلة لم يفعلها، ولم تحدثه نفسه بها قط، فاستهجن الشاعر هذا الفعل من أبي الحزم، حتى أنه لا يود ذكر اسمه في الكلام أو الإشارة إليه، فقال:

عَدَا سَمْعَه عني، وَأصغى إلى عدًى   لهم في أديمي كُلّما استَكنوا عَطّ
بَلَغتُ المدى، إذ قَصّروا، فقلوبهمْ،   مكامِنُ أضْغانٍ أساوِدُها رُقّط
يُوَلّونَنِي عُرْضَ الكَرَاهةِ والقِلى   ومَا دَهْرُهمْ إلّا النّفَاسَةُ والغَمْطُ
وقَدْ وسَمُوني بالّتي لستُ أهْلَها   ولَمْ يُمْنَ أمثالي بأمْثَالِها قَطّ

وقد حاول جاهداً أن يبرئ نفسه مما رُمي به، فكان حاله كالذئب الذي اتهم زوراً وبهتاناً بدم يوسف عليه السلام، فيقول:

كان الوشاةُ وقد مُنيتُ بإفكِهِمْ   أسبَاطَ يعقُوبٍ وكُنتُ الذيبا

وقد استهل الشاعر أغلب قصائده في أبي الحزم بغزل؛ فاتر لا قوة فيه ولا عاطفة، كقوله:

أَمَا وألْحَاظٍ مِراضٍ صِحَاحْ   تُصْبِي وأعْطَافٍ نَشَاوَى صَوَاحْ
لِبَائِنٍ بِالحُسْنِ، فِي خَدِّهِ   وَرْدٌ، وَأَثْنَاءَ ثَنَايَاهُ راحْ
لَمْ أنْسَ إذْ بَاتَتْ يَدِي لَيْلَةً   وِشَاحهُ اللّاصِقَ دُونَ الوِشَاحْ
أَلْمَمْتُ بالأَلْطَفِ منه، ولَمْ   أجْنحْ إلى ما فيه بعضُ الجُناحْ

ثم ينتقل إلى المديح بادئاً باسم ممدوحه في نقلة معيبة مستهجنة واضحة الانتقال، قائلاً:

لأصْفِيَنَّ المصطفى، جَهْوراً،   عَهْداً، لروضِ الحسْنِ عنه انتضاح

فيمضي يشكو ويستعطف ويبكي حظه؛ فعلاقته بممدوحه مبنية على مطامع سياسية قادته إلى الاعتقال والتنكيل. وأن عاطفته في هذه القصائد ضحلة "لا تصدر عن بواعث نفسية، ولا ينفعل بها إحساس أو شعور، وإنما كان يدعوه إليها التفنن وإرضاء الممدوحين."[16]وإذا أمعنا النظر في قصيدته السابقة نجدها تحمل أنساقاً هجائية مضمرة، وإن كان ظاهرها مدحاً، فقوله:

من مثله؟ لا مثل يلفى له،   إن فسدت حال فعزّ الصلاح
يا مُرْشدِي، جهْلاً إلى غيرهِ   أغْنى عَنِ المِصْباحِ، ضوء الصَّباح

فذكر الفساد في سياق المدح إقراراً بوجوده في حكمه، فهو هجاء مضمر، وقوله يا مرشدي إلى غيره دلالة على أنه غير معروف بين الأمراء، وقوله:

انظرْ ترَ البدْرَ سنًا، واختبر تجده كالمسْكِ إنْ مِيْثَ فاح

فالبدرُ واضحٌ لا يحتاج إلى من يتحسس رؤيته، ولفظة انظر تدل على عدم المشاهدة كأنه غير معروف وليس بدراً، وأن كرمه مصطنع يحتاج إلى من يختبره، فهو كالمسك لا يفوح عطره إلا إذا دهك بالأصابع، وقوله:

إيهِ أبَا الحَزْمِ اهْتَبِلْ غِرّةً ألْسِنَةُ الشّكْرِ عَلَيْهَا فِصَـاحْ

يطلب من ممدوحه اغتنام الفرص الجيدة؛ ليشكره عليها، فمدحه مرتبط بنفسيته وإرادته، وقوله:

لَمْ يَثْنِنِي عَنْ أمَلٍ مَا جَرَى قَدْ يُرْقَعُ الخَرْقُ ويُؤْسَى الجِرَاحْ

فالشاعر يتحسس أمل الخروج من محنته (السجن) رغم استخدامه للحرف (قد) مع المضارع التي تفيد الشك، والمبني للمجهول يُرقع التي توحي بمصيره المجهول. ولعل السبب الذي جعل الشاعر ينحو هذا المنحى في مدائحه لأبي الحزم؛ إنهما كانا على طرف نقيض في الطبائع والميول، فالأمير متواضع متعفف وقور متمسك بدينه، بينما كان الشاعر مغروراً ذهب به العجب كل مذهب، معتزاً بنفسه، مندفعاً مستهتراً يلهو ويعاقر الراح ويذهب مع الحب كل مذهب ، بالإضافة إلى أن الشاعر ينتمي إلى أصل رفيع فهو ينتسب إلى قبيلة مخزوم من قبائل قرشي التي وفدت على الأندلس، [4] لذلك أتت كل قصائده في الفترة تشيع بروح الكبرياء، وأنه "غير مسترسل في مدح ابن جهور إلا من خلال نفسه"[3] كقوله:

أيّهَا المؤذِنِ بظلم اللّيَالِـــي لَيْسَ يَوْمِي بِوَاحِدٍ مِنْ ظَلُومِ

قَمَرُ الأفقِ إنْ تَأمّلتَ والشّمْـ ـسُ هُمَا يُكْسَفَانِ دُونَ النّجُومِ

وَهُوَ الدّهْرُ لَيْسَ يَنْفَكّ يَنْحُو بِالمِصَابِ العَظِيمِ نَحْوَ العَظِيمِ

يحاول الشاعر من خلال هذه الأبيات إظهار قوته واعتداده بنفسه، فالأحداث لا تعصف إلا بالعظماء، كما أن الكسوف لا يصيب النجوم، وإنما ينال الشمس والقمر، وقد توالت . من خلال قصائده . الصور المتكررة من الكبرياء والمدح والتذكير بماضي الود والثناء على نفسه والنقمة على الوشاة، غير أن هذه الشموخ والكبرياء والأنفة، لم تلبث حتى نجدها مهزومة بعد أن غض ابن جهور الطرف عنه، فلجأ إلى التذلل والرقة والاعتذار يقول:

ومَا كَانَ ظَنّي أنْ تَغُرّني المنَـى وَللغِرّ في العشوَاء مِنْ ظَنّهِ خَبْطُ

أما وَأرَتْنِي النّجْمَ مَوْطِئَ أخمَصي لقد أوْطأتْ خَدّي لأخمص من يخطو

وقد بث ابن زيدون في مقدمة قصيدته اللامية في أبي الحزم، شجون نفسه وآلام فؤاده؛ حيث اعتراه الذل والخزي، وأصابه الكلال على الرغم من اعتصامه بجوار ممدوحه، وعقده الآمال عليه، فأثار هذا الموقف المتناقض الدهشة والتعجب في نفسه، إذ كان الشاعر أحد مؤسسي دولة ابن جهور، فيقول متذللاً:

إبائي في جِوَارِكُمُ الذّلِيلُ　　وَحَدِّي في رَجائِكُمُ الكَلِيلُ
لَمُختلفانِ من حاليَّ مهما　　أجالَ الفكْرَ بينهما مُجيلُ
نصيبٌ من ولايتكم كثيرٌ　　وحظٌّ من عِنايتكم قليلُ!
أتحيا أنفُسَ الآمالِ فيكم　　وليَ ـ أثناءَها ـ أمَلٌ قليلُ
وأعْجَبُ حادثٍ نظَري لديكمْ　　إلى غَلَلِ النَّجاحِ وبي غَليلُ!
وقدحي في ودادِكم مُعلَّى　　وباعِي في اعتمادِكُمُ طويلُ

وبعد موت أبي الحزم رثاه الشاعر بمرثية واحدة يقول في مطلعها:

ألم تر أنَّ الشمسَ قدْ ضمّها القبرُ　　وأنْ قدْ كَفَانا فقدَها القمَرُ البَدْرُ

يعد الرثاء من أصدق الأغراض الشعرية؛ لتصويره مرارة الفقد، وحسرة الفراق، بالإضافة لذكره محاسن الفقيد؛ إلا أننا في هذه القصيدة لم نر ما يدل على أنها تنبض بعاطفة صادقة، فالمطلع تقليدي يمهد فيه لمدح والد المتوفى أبي الوليد...[3]،لأن الرثاء "يقتضي الإحساس بالفجيعة، ولوعة الحزن، والتفكير في الموت وما يخالطه من ضرب الأمثال، وسوق الأخبار، والتماس العزاء من مظاهر الطبيعة وأحداث الدهر، وعمق التأمل في الفناء، والحكمة وما يلابسها من حزن شخصي عميق"[15]، وهو ما تفتقده هذه القصيدة، التي لا نلمح فيها خلجات قلب شاعر متأثر [16]، بل كان الشاعر متطلعاً لمدح ولي عهده، متوجساً ملحفاً في الطلب والحظوة، فانظر إلى قوله بعد هذا المطلع:

وأن الحَيَا وإنْ كانَ أقْلعَ صــــوبُهُ　　فقد فاضَ للآمالِ في إثرِه البَحْرُ
إساءةُ دهرٍ أحْسنَ الفِعْلَ بعْـدها　　وذنْبُ زمانٍ جـاءَ يتبعهُ العُـذْرُ
فلا يَتَهَنَّ الكاشِحونَ!! فمَا دَجا　　لنا اللَّيْلُ إلاَّ ريْثمَا طلعَ الفـجرُ
وإنْ يَكُ ولَّى (جَهْوَرٌ)، فمحمدٌ　　خَليفتهِ العَدْلُ الرَّضى وابْنُهُ البَرُّ

فما إن مات أبي الحزم حتى خلفه هذا الأمير البر العادل، ثم يمضي الشاعر مازجاً بين مدحه ورثائه، ولم ينس نفسه من الطلب الذي يتضح في قوله:

لكَ الخَيْرُ، إنّي واثقٌ بكَ شاكِرٌ　　لِمَثْنَى أيادِيكَ الَّتِي كُفْرُها الكُفْرُ

ومن خلال قراءتنا للقصيدة، لا نحس بمواطن الحزن، وإنما كان رثاؤه للمجاملة فحسب، فهي مليئة بكلمات لا تناسب المقام، كألفاظ المدح والسروح ووصف الطبيعة والخمر، كقوله:

أهَابَـتْ إليْــهِ بالقُلُـــــــــــوبِ مَحَبَّةٌ   هِيَ السِّحْرُ لِلْأَهْوَاءِ بَلْ دُونَهَا السِّحْرُ
سَرَتْ حَيْثُ لا تَسْرِي مِن الأَنْفُسِ المِنَى   ودَبَّتْ دَبِيبًا لَيْسَ يُحْسِنُهُ الخَـــــــمْرُ
لَبِسْنَا لَدَيْهِ الأَمْــــنَ تَنْدَى ظِـــلَالُهُ   وزَهْرَةَ عَيْشٍ مِثْلَ مَا أَيْنَعَ الـــــزَّهْرُ
وعَادَتْ لَنَا عَــــــــادَاتُ دُنْـيَا كأنَّمَا   بِهَا وَسَنٌ أَوْ هـزَّ أعْطَافَهَا سُــكْرُ

فبعد أن تولى أبو الوليد ابن جهور الحكم مدحه الشاعر بقصائد، تعبر عن إخلاصه وحبه له، فقد كان صديقه قبل أن يتسلم الحكم وله الفضل في خلاصه من السجن، إلا أن الشاعر كان في كل هذه القصائد ملحاً في طلب السلطة والجاه، فأول ما قاله في مدحه هذه القصيدة التي استهلها بمقدمة غزلية، ممزوجة بالخمر:

مَا للمُـدَامِ تُدِيـــرُهَا عَيْنَــاكِ   فَيَمِيلُ فِي سُكْرِ الصِّبَا عِطْفَاكِ؟
هَلّا مَزَجْتِ لعَاشِقِيكِ سُلافَها   بِبَرُودِ ظَلْمِكِ أوِ بعَذْبِ لمـاكِ؟
وَاهًا لِعَطْفِكِ، والزَّمَانُ كَأنَّمَا   صُبِغَتْ غَضَارَتُهُ بِبُرْدِ صِبَــاكِ
واللَّيْلُ مَهْمَا طَالَ قَصَّرَ طُولَهُ   هاتي . وقَدْ غَفَلَ الرَّقِيبُ . وهَاكِ

ثم انتقل إلى مدح الأمير قاطعاً النسيب فجأة، ليهجم على المديح دون اتصال بين المقدمة والموضوع، فأضفى عليه خلال المكرمات مبشراً نفسه والدنيا به؛ راغباً في الحظوة والجاه، منطلقاً في الثناء عليه موجهاً إليه الخطاب بالضمير الغائب، لأنه بعيدٌ عنه نفسياً وواقعياً، ولم يلبث الشاعر قليلاً، حتى ألحَّ في طلبه ملتمساً وزارة الرأي والمشورة، في أول قصيدة له، قائلاً:

لِلْجَهْوري أبي الوليدِ خَــــلائِقٌ   كالرَّوضِ أضْحَكَهُ الغَمامِ الباكي
بُشْـرَاكِ يا دُنْيَا بُشْـــرَانَا مَعًا   هَذَا الوَزِيرُ أبُو الوَلِيـــــــدِ فَتَاكِ

ومدحه بقصيدته البائية، التي استفتحها بهذا المطلع الغزلي:

أمَا عَلِمَتْ أنَّ الشَّفِيـعَ شَبَابُ؟   فَيَقْصُرَ عَنْ لَوْنِ المحِبِّ عِتَابُ

ثم انتقل إلى مدحه قائلاً:

كأنَّ إياه الشمس بِشْرُ بنُ جَـهْوَرٍ،   إذا بذلَ الأموالَ، وهي رِغـاب
كأنَّ الثّريّا رايـــــةٌ مُشْـــــرِعٌ لـها   جبانٌ، يُرِيـدُ الطعن، ثم يهاب
كأنَّ سُهـيلاً، في ربـــــاوَةِ أُفْقِهِ،   مُسيمُ نُجُومٍ ، حــانَ منه إيَابُ
كأنَّ السُّـها فاني الحُشاشـةِ، شفَّهُ   ضَنىً، فَخُفَاتٌ مَـــرّةً ومثابُ
كأنَّ الصباحَ استقبس الشَّمسَ نارَها   فجاءَ له، من مُشْتَريه، شِهابُ

كأنَّ إياه الشمس بِشْرُ بنُ جَهْورٍ، إذا بذلَ الأموالَ، وهي رغاب

حشد الشاعر في القصيدة مظاهر الطبيعية؛ فسهيل يرعى النجوم، ثم يحين إيابه بعد أن شبعت من المرعى، وهذا السها يفنى حشاشته الضنى فيخفت مرة ويثوب أخرى، وما أجمل هذا الصباح الذي يتنفس الشمس، ويلتمس منها الدفء، لكن هذه الصور مستقلة عن حياة الشاعر لا صلة بينها وبينه فهو لم يتجاوب مع هذه الحياة، وإنما يتصنع ويتكلف في حشد هذه الصور المتتابعة بالإضافة إلى تكراره لأداة التصوير(كأن) ليدخل إلى غرضه، ثم يقول:

هو البِشْرُ شِمنا مِنْهُ بَرْقَ غَـمَامَةٍ لهَا باللُّهَا في المعْتَفِينَ مَصَابُ

غَنـــيٌّ عنِ الإبْسَاسِ دَرُّ نَوالِهِ إذا استنْزَلَ الدَّرَّ البَكِيءَ عِصَابُ

مُوطَّأُ أكْنَافِ السّـمَاحِ دَنَتْ بِهِ خَلائِقُ زُهْرٌ إذْ أنَافَ نِصَـابُ

وذِي تَدْرإٍ يَعْدو العِدا عَنْ قِـرَاعِهِ غِلابٌ فَمَهْمَا عَزَّهُ فَخِـلابُ

عَزَائِمُ يَنصَاعُ العِدَا عَنْ مُمِـرّهَا كَمَا رُهِبَتْ يَوْمَ النِّضَالِ رِهَابُ

صَوَائِبُ رِيْشُ النَّصْرِ في جَنَباتِها لُؤَابُ وريشُ الطـائِشَاتِ لُغَابُ

فالقصيدة خالية العاطفة متكلفة البديع فجانس الشاعر بين لها واللها، وأكناف وأناف، وغلاب وخلاب، ورهبت ورهاب، ويقابل بين دنت به وأناف، وبين ريش النصر وريش الطائشات، وبين اللؤاب واللغاب؛ ثم ينتقل الشاعر إلى الفخر بعلمه وشعره، :

وَرَدْتُ مَعِينَ الطِّبـعِ، إذ ذِيدَ دونهُ أُناسٌ، لهم في حَجْرَتَيْهِ لُـوابُ

وَأَنْجَـدَنِي عِلْـمٌ تَوَالَتْ فُنُـونُهُ كَمَا يَتَوَالَى في النِّظَامِ سِخَـابُ

محتقراً خصومه ومنافسيه، قائلاً:

فَدَيْتُكَ كَمْ ألقى الفَـوَاغرَ مِن عِدًا قِرَاهُمْ لِنيرَانِ الفَسَادِ ثِقَـابُ

عَفَا عَنْهُمْ قدْرِي الرّفِيعُ فأَهْجَـرُوا وبَايَنَهُمْ خُلقي الجَمِيلُ فعَابُوا

وقَدْ تُسْمِعُ اللَّيْثَ الجِحَـاشُ نَهِيقَها وتُعلِي إلى البَدْرِ النُّبَاحَ كِلاَبُ

ثم يذكره بما خلعه عليه من حلل الثناء؛ نادباً حظه وجزاءه عنده مظهراً أمله وثقته فيه:

فَأيْنَ ثناءٌ يَهْرَمُ الدَّهْـــــــرُ كِبْـرَةً وحِلْيَتُهُ في الغَـــابِرِينَ شَبَابُ؟

سأبْكِي عَلَى حظِّي لدَيكَ كَمَـــــا بَكَى رَبِيْعَةُ لما ضَلّ عَنْهُ ذُؤَابُ

وأشْكُو نُبُوَّ الجَنْبِ عَنْ كلّ مَضْجعٍ كَمَا يَتَجَـــافَى بالأسِيرِ ظِرَابُ

فَعُدْ بِيَد بَيْضَاء يَصْــــدَعُ صِدْقُها   فإنَّ أرَاجِيـــفَ العُـدَاة كِذابُ

وبعد إلحاح متواصل، عينه سفيراً بينه وبين الملوك، غير أنه في بعض سفاراته أطال الثواء بحضرة ملك مالقة، فاقترب منه وخف على نفسه وأحضره مجالس أنسه، فعتب عليه أبو الوليد وأقصاه عن السفارة[7]، فأحس الشاعر بالقلق والاضطراب، فتحول إلى استعطاف باكٍ، بعد عزله من منصبه:

لَمْ أُوتَ فِي الحَالِ . مِنْ سعْيِي لَدَيكَ   وَنَىً بلْ بالجُدُودِ تطِيرُ الحالُ أو تقَعُ

لاَ تَسْتَجِزْ وضْعَ قـدْري بعْـدَ رفْعِكَهُ   فاللهُ لاَ يرفَعُ القَدْرَ الَّذي تضَـــعُ

لكن هيهات لم يصغِ له، ولم يثنِ له عنان عطفه، ويرى الشاعر أن عزله متوقع؛ فالولايات تنتهي دائماً بالعزل، لكن لماذا أصبح رد السلام علي إشارة؟ إنك بفعلك هذا قد أغريت بي حسادي فتناولوني بالزراية والاستخفاف، مع أنهم يرهبونني ويخشون لساني:

هَبِ العزْلَ أضـــحَى للولايةِ غايةً   كما غايةُ الموفِي من الظِلّ أنْ يُكري

ففيمَ أَرَى ردَّ السَّلامِ إشَارَةً تُسَوّغُ بِي   إِزْرَاءَ مَنْ شَــــاءَ أنْ يُـــزْرِي؟

أُناسٌ هُمُ أخشى للذْعةِ مِقْـــولي   إذا لم يكن ممَّا فعلت لهم مُضْـــرِ

ولا تخفى دلالة تنكير هؤلاء الحساد فوصفهم بـ (أناسٌ) وتقديم هذا الخبر على المبتدأ (هم)التي أعطت إحساساً بمدى امتهان الشاعر لهم، فهذا الموقف المتثاقل من الممدوح في ردَّ التحية قد حز في نفسه، لكنه كان مقتنعاً بما لديه من ثراء:

مَنْ مُبْلِغٌ عَني البَـلادَ إذا نَبَتْ   أنْ لَسْتُ للنّفسِ الأَلُوفِ بِباخِعِ

أمّا الهَوَانُ فَصُنْتُ عَنْهُ صَفْحةً   أغْشَى بِهَا حَدّ الزَّمَانِ الشَّـــارِعِ

فَلْيُرْغِمِ الحَظَّ المـــــوَلِّ أنَّهُ   ولَّى، فَلَمْ أُتْبِعْهُ خُطْـــــوَةَ تابِعِ

إنَّ الغِنَى لَهُوَ القَنَاعَةُ لا الذِي   يَشْتَفّ نُطْفَةَ مَـــاءِ وَجْهِ القَانِعِ

وبهذا عرف الشاعر بأن لا مكان له ولا حظوة، لديه عند أبي الوليد، فاتصل بالمعتضد، فاحتفى به واستوزره، ومدحه؛ بقصائد يسير بها الذكر، ويزهو بها الشعر، وفاء ما لقي في جنابه من عزة ونعماء[17]وقد وصف ما وجده من بر وحفاوة، مظهراً من الأنحاء على بني جهور ما كان أخفاه، ولعل أول ما صاغه في المعتضد قوله:

لِلحبُّ في تلك القبابِ مَـــــرادُ   لو ساعد الكلف المشوق مُرادُ

مَنْ مُبْلِغٌ عنّي الأحِــــبّةَ إذْ أبَتْ   ذِكْرَاهُمُ أنْ يَطْمَئِنّ مِهَـــــادُ

إنْ اغْتَرِبْ فَمَواقِعَ الكَـــرَمِ الذي   فِي الغَرْبِ شِمْتُ بُرُوقَهُ أرْتَــادُ

أوْ أنْأَ عَنْ صِيدِ المُلُوكِ بِجَـــــانِبي   فَهُمُ العَبِـيدُ مَلِيْكُهُمْ عَبّـــادُ

المجْدُ عُذْرٌ فِي الفِرَاقِ لِمَــنْ نَأَى   لِيَرى اَلمصَانِعَ مِنْهُ كَيْفُ تُشَـادُ

يا هَلْ أتَى مَنْ ظَـــنَّ بِي، فظُنُونُهُ   شَتَّى تَرجَّـحُ بَيْنها الأضْــدادُ

لَمَّا وَرَدْتُ بِوِرْدِ حضرَتكَ المُنَـى   هِقَتْ لَدَيّ جِمَامُهَا الأعْـــــدَادُ

فاسْتَقْبَلَتْني الشّمْسُ تَبْسُطُ رَاحَةً   للبَحْرِ مِنْ نَفَحَاتِهَا استِمْـــــدادُ

ثم أخذ يسرد أسماء المناذرة أجداد بني عباد، ووصف هؤلاء الحفدة بأنهم وصلوا حاضرهم بغابرهم، وقد توسل الشاعر في مدحه لهم مظهراً تعصبه لعروبتهم القحة، بعد أن لمس هذا الأثر الإيجابي في نفوسهم، ليبدو التباين بينهم وبين الجهاورة المنتسبين للبرابر، منوهاً بمكانتهم السامية وأصلهم العريق، ومجدهم السامق، وانتسابهم إلى المناذرة سادة ملوك الأرض وانحدارهم إلى درة كريمة من درر العرب هي ماء السماء أم المنذر الأكبر، فيقول:

فِي آلِ عبادٍ حَطَطْتُ ، فأعصَمتْ هِمَمِي، بِحَيْثُ أنَافَتِ الأطْوَادُ

أهْلُ المَنَاذِرَةِ، الذِينَ هُمُ الـرُّبَى   فوقَ المُلُوكِ، إذِ المُلُوكُ وِهَـــادُ

قَوْمٌ إذا عَـدَّتْ مَعَـدُّ عَقِيلَةً ،   مَـاءَ السَّمَاء، فَهُــمْ لَهَا أوْلَادُ

نِيْطَتْ بِعَـبَّادٍ لآلِئُ مَجْـدِهِم   فَتَلأْلأتْ فِي تُومِـــــهَا الأفْرَادُ

مَلِكٌ إذا افْتَنّ صِـفَاتُ جَـلَالِهِ   فَتَقَاصَرتْ عَنْ بَعْضِـها الأعْدادُ

وقد أحس الشاعر بعد إيناسهم لوحشته، وإيوائهم لغربته، وإسعافهم لحاجته، أن المدح الذي اصطنعه من قبل، إنما كان تعليما وتمرينا، ليعرف كيف يلهج بالشكر، وكيف يعترف بالجميل، ويقول معتذراً عن مدائحة في بني جهور:

يأيّها المِلكُ الـذِي فِي ظِــــلّهِ   رِيضَ الزَّمَانُ فَذَلّ منهُ قِيَـــادُ

يا خَيرَ مُعْتَضِدٍ بِمَنْ أقْــــدَارُهُ   فِي كُلّ مُعْضلَةٍ لهُ أعْضَــــادُ

نَفْسِي فِدَاؤكَ أيُّها المَلِكُ الذي   زُهْرُ النّجُـوم لوَجْهِـــهِ حُسّادُ

تَبْدُو عَلَيكَ من الوَسَامَةِ حُـلّةٌ   يَهْفُو إليْهَا بالنّفُـــــوسِ وِدَادُ

مَهْما امتَدحتُ سِوَاكَ قبلُ فإنّما   مَدحي إلى مَدْحي لكَ استِطْرادُ

فما أجمل هذه القصيدة الضافية في أول لقاء، فقد أفرغ فيها جهده، وتأنق فيها ما وسعه التأنق؛ فقد حددت "مكانته في هذه الدولة الجديدة الحافلة بفحول الشعراء والأدباء"[4]، فاختفت أناه المتكبرة، وأُبْدِلت بأنا راضية شاكرة، كقوله (نفسي

فداؤك)، (مهما امتدحتُ سواك)، ولما اطمأن على مكانته مدحه بأخرى صاغها بمناسبة مرض الأمير، رفعه فيها فوق الملوك أجمعين، وتحدث فيها عما لقيه من سرور ونعيم، فيقول:

هُوَ المُبْقِي مُلُوكَ الأرْضِ تَدْمَى ... قُلُوبُهُمُ، كأفْــــواهِ الجِـــــرَاحِ
رَآهُ اللهُ أجْــوَدَ بالعَطَـــــايا ... وأطْعَنَ بالمكَايِدِ والرِّمَـــــــاحِ
فمَنْ قَاسَ المُلُوكَ إليْهِ جَــهْلاً، ... كمَنْ قَاسَ النّجُــومَ إلى بـَرَاحِ
ومُعْتَقِدُ الرِّيَاسَةِ في سِـــــواهُ، ... كَمُعْتَقِدِ النُّبُـوّةِ في سجَـــــاحِ
فَدَيْتُكَ كَمــــْ لعَيْنِي مِنْ سُمُوٍّ ... لَدَيْكَ، وكَمْ لِنَفْسِي مِنْ طِـماحِ
ألا هَلْ جَـاءَ مَــنْ فَارَقْتُ أنّي ... بِسَاحَاتِ المنَى رَفْلُ المــــــرَاحِ
أنّي مِنْ ظِـلَالِكَ فِي زمَــــــانٍ ... نَدِي الآصَالِ رَقْرَاقِ الضَّواحِي
تُحَيِّينِي بِرَيْحَـــانِ التّحَـــــفي ... وتُصْبِحُـنِي مُعَتَّقَةُ السّمَـــاحِ
فَهَا أنَا قَدْ ثَمِلْتُ مِـنَ الأيَــادِي ... إذا اتّصلَ اغْتِبَاقِي باصْطِبَاحِي
لَقَدْ أنْفَذْتَ فِي الآمَالِ حكمي ... وأجْرَيْتَ الزَّمَانَ عَلَى اقْتِرَاحِــي
وهل أخشى وقوعاً دون حـــظ ... إذا ما أث ريشك مـن جناحي
فمَا استَسقَيْتَ مِن غَيْمٍ جَهَـامٍ ... ولا اسْتَوْرَيْتُ مِنْ زَنْدٍ شَحَـاحِ
وَ وَاصَلَنِي جَمِيلُكَ في مَغِيــــبِي ... وطَالَعَنِي نَـدَاكَ مَعَ انْتِزَاحِــي
وَلَمْ أنفَكّ ، إذْ عـدَتِ العَوادِي، ... إلَيْكَ رَهِيـنَ شَــوْقٍ والتِيَاحِ
فحَسْبِي أنتَ، مِنْ مُسْدٍ لنُعْمَى ... وحَسْبُكَ بِي بِشُكْرٍ وامْتَـدَاحَ

وما أجمل هذا الشكر، وهذا العرفان، وهذه الرقة والسلاسة التي تجري كالماء، فلا تكلفاً ولا صنعة، وإنما يتحدث بعاطفة مستمدة من نفسه، فمدائحه في المعتضد وابنه "أقرب إلى العاطفة، وأدنى إلى الشعور من سواهما، فقد وجد في حماهما ظلاً ظليلاً يطبي نفسه، ويفشأ كمده، ويمسح دمعه، ويؤاسي جروحه؛ وإن النفس لا تهتز للجميل، ولا تشعر بالنعمة، إلا بعد شعورها بالبؤس، واهتزازها من الحرمان، وإن المرء لا يحس بفضل من يواليه الجميل بدءاً، كما يحس بهذا الفضل إذا جاء بعد محنة، وأدركه بعد هوان... وماذا يكون شعورك نحو من يقيل عثرتك، ويسعف لهفتك، ويأخذ بيدك من بحر الخطوب، بعد أن أشرفت على الغرق"[16]، وقد طغى على قصيدته الأنا الشاكرة الراضية (فديتك كم لعيني من سمو، إني في ظلالك، تُحَيِّينِي، تصْبِحُنِي، فَهَا أنَا قَدْ ثَمِلْتُ، أنْفَذْتَ فِي الآمَالِ حكمي وأجْرَيْتَ الزَّمَانَ عَلَى اقْتِرَاحِي، وهل أخشى وقوعاً، ووَاصَلَنِي جَمِيلُكَ وطَالَعَنِي ندَاكَ ...)،

ويعرض الشاعر في البيت السادس بأبي الحزم بن جهور الذي أودعه السجن، وكأنه يريد أن يخبره أنه قد وجد من هو خير منه، ومن أفضل مدائحه في المعتضد قصيدته الفائية، التي تذكرنا بمدائح المتنبي في سيف الدولة الحمداني:

أليسَ بنُو عبَّـادٍ القبلةَ التـــــــي   عليها الآمـالِ البريةِ نعكـــفُ
ملوكٌ يُرَى أحباؤهم فَخَرَ دهرِهِمْ   ويخْلُفُ مُوتاهم ثَـــــاءٌ مُخَلَّفُ
همـامٌ يزين الدهرَ منه وأهلـــــه   مليــكٌ فقيهٌ كاتـــبٌ متفلسفُ
يتيه بمرقـــهُ سريرٌ ومنبــــــــرٌ   ويحمـد مسعاه حسامٌ ومصحفُ
مُرٌّ القُوى لا يملأُ الخطبُ صدره   وليس لأمــــــرٍ فائت يتلهَّـفُ
جحـيمٌ لعاصيه يُشَبُّ وقـــوده   وجنَّةُ عدْنٍ للمطيعـــــين تُزْلَفُ
لك الخيرُ أنى لي بشكرك نهضة؟   وكيف أؤدي ما أنت مســـلف؟

يخبرنا ابن زيدون في هذه الأبيات بصفات بني عباد، وبالأخص المعتضد، بجمل اسمية حاذفاً المبتدأ؛ لاشتهارهم بين الناس، مستعجلاً الإخبار عنهم، (ملوكٌ، همامُ، مُرّ، جحيمٌ) بل قد اختزل الخير له (لك الخيرُ) ،وتختفي في قصائده له ذاتية بن زيدون فلا نجد إلا أنا شاكرة حامدة كقوله:(أنى لي بشكرك نهضة؟، وكيف أؤدي ما أنت مسلف؟) متسائلاً ـ في حيرة ـ كيف يرد جميله؟ وكيف يمدحه ويشكره نظير نعمه. وقد أُبيحَ لابن زيدون التنزه مع حرمه في إحدى جنات المعتضد بإشبيلية، التي وصفت بعروس بلاد الأندلس، يتوسطها النهر الأعظم، الذي يضاهي دجلة والفرات والنيل حسناً، تسير فيه القوارب للنزهة والسير والصيد تحت ظلال الثمار وتغريد الأطيار[6]، حتى بلغ إحساسه بروعة منظرها، وجمالها الفتان أن خالها جنة عدن، فمدحه بقصيدة بديعة، استهلها بقوله:

غَمَرَتْني لَكَ الأيـادِي البِيْضُ:   نَشَبٌ وَافِرٌ، وَجَاهٌ عَرِيـضُ
كُلَّ يومٍ يَجِدُّ مِنكَ اهْتِبَـــالٌ   عَهْدُ شُكْرِي عليه غَضٌّ غَرِيضُ
ومُجْتَنىً مُدَّنٍ؛ وظِلٌّ بَـــــرُودٌ   وَنَسِيمٌ يَشْفي النُّفُوسَ مريضُ
ومياهٌ قد أَخْجَلَ الوردَ أنْ عا   رَض تذهيبَــــــهُ لها تفْضيضُ
كُلَّما غَنَّتْ حمـــــائمُ قلنا: "معبدٌ ـ إِذْ شَدَا ـ أجـابَ الغريضُ

فأي شرف حظي به الشاعر في هذه النزهة التي أنسته أن يبدأ القصيدة بالغزل، مكتفياً بوصف تلك الطبيعة الرائعة، ولا تخفى دلالة(غمرتني لك الأيادي البيض) التي توحي بأن الشاعر غُمِرَ بكل ضروب العطاء، والنعيم فانهال يصف تلك النعم والهبات التي وهبت له فوصف تلك الحدائق بجنة عدن كثيرة الثمار والأنهار، وأن نسيمها يشفي النفوس العليلة، معبراً بصدق

وإخلاص، فهو لا يملك إزاء هذه النعم السابغات، إلا أن يحبوه بالنصح الثمين، ويدعو له بطول الحياة في نجاح متصل، وانتصار مطرد فإنه سيد الملوك باعترافهم أجمعين:

حسبي النصح والوداد وشكر عطر الدهر من مسك فضيض

دُم مُوقّى وَلِيُّكَ، الدَّهْرَ مُحْبُــو رٌ مَساعِكَ والعـــــدوُّ مَهِيضُ

فاعْتِرافُ الملوكِ أنَّك مَــولا هُم حديثٌ، ما بينهم مُسْتفِيضُ

وتألّفت بينهما صداقة ومودة وطيدة الأركان جعلت الأمير يشركه معه في خلواته فيقارعه الكؤوس ويطارحه الأسمار ويقارضه الأشعار ويهدي إليه ويقبل هداياه، فيبيح له دخول حمام قصره ويبعث إليه بالطيب والبخور فيهدف الشاعر شاكراً:[4]

رِضاكَ لنَا قَبلَ الطَّهُورِ مُطَــهِّرُ وقُرْبُكَ من دونِ البَخورِ مُعطِّرُ

فلَوْ عَزَّ حَمَّامٌ لأدْفَـــأَنا ذَرًى يَفِيضُ به ماءُ النَّدى المتَفَـجِّرُ

ولَوْ لم يَكُنْ طِيبٌ لأغنَتْ حَفَاوةٌ تُمَسَّكُ منهــا حالُنَا وتُعَنبَرُ

فلا فارقَ الدُّنيا سناءٌ مُقــدَّسٌ بِعَيشِكَ فِيهَا أو ثَنَــاءٌ مُجمَّرُ

وكثيراً ما يدعو المعتضدَ إلى مجالس اللهو والشراب في رياض إشبيلية، ملتمساً الخمر منه في شعر رقيق كقوله:

يَا بانِياً كُلَّ مَــجْدِ وهَــادِماً كُلَّ وجْـــدُ

جِسْمُ السُّرُورِ سَوِيٌّ مِنْ صَوْغِ نُعْمَاكَ عندي

فَهَــبْ لهُ رُوحَ رَاحٍ يَنْطِـقْ بأحْـــفَلِ حَمْدِ

ويشكره على إهدائها فيقول من أبيات:

يُشرِّفُ مَمْلُوكَكَ المسترَقَّ نَظْـمٌ مِنَ الكَلِمِ المنْتخَلْ

وراحٌ تُعيدُ إلى من أسنَّ طِيبَ زَمَانِ الصِّبَا المقْتَبِلْ

وإذا كان ابن زيدون قد بدأ جل قصائده في بني جهور بالغزل أو نحوه، فإن أغلب قصائده في المعتضد بدأها بالمديح الخالص، وقد جاءت هذه المدائح في الإشادة بإحراز نصر، أو فتح حصن، أو عودة من غزوة، أو تهنئة، بعقد مصاهرة، أو حلول عيد، فلم يترك مناسبة، إلا انتهز الفرصة لمدحه وبين سياسته الحصيفة وحروبه المظفرة فقد "كان المعتضد سعيد المطالع في وقائع غزواته"[5]، فجاءت مدائحه فيه ملائمة لنفسيته ومشاعره، لتكون مؤثرة في دورها فعالة في جلب انتباهه، وتهيئته للتجربة المتلقاة، ففي انتصار المعتضد على المظفر بن الأفطس، سجل الشاعر هذا النصر، بادئاً بالتهنئة؛:

ليهْنِ الهُدَى إنْجاحُ سَعْيِكَ في العِـــدَا   وأنْ راح صُنْعُ اللهِ نَحْـوَكَ واغتدى

ونُهْجُكَ سُبُلَ الرُّشْدِ في قمعِ مَنْ غوى   وعدلُكَ في اسْتِئْصالِ مَنْ جارَ واعتدى

وأنْ باتَ مَنْ والاكَ في نشْـــوةِ الغِنَى   وأصْبَـــحَ مَنْ عاداكَ في غمْرةِ الـرَّدى

وقضى الشاعر فترة صفاء مع المعتضد بين المياه الجارية والأزهار العاطرة فرتل هذه الأبيات بادئاً قصيدته بالنداء:

يا أيُّها الملــــكُ الجليلُ   يُكِلُّ ألسُننا جـــلالُكَ

انظُـرْ إلى مُحْتَلــــــنَا   قدْ زانَ ساحَتَهُ احْتلالُكْ

نَهْرٌ وروضٌ نحْنُ بينهُمَا   تُؤَلِّفُنا ظِـــــــــــــلالُكَ

قد فاضَ في هــذا ندا   كَ، ونَعَّمتْ هذا خِلالُكَ

ومن القصائد التي بدأها بالتهنئة، قصيدته في المعتضد بمناسبة مصاهرته لأبي الجيش أمير دانية، فقال ابن زيدون:

، أخطُبْ فملكُكَ يفْقِدُ الإملاكا   واطْلُبْ فَسَعْدُكَ يضْمَنُ الإدْراكا

وهنأ الشاعر الأمير بالفصد ودعاه إلى معاقرة الشراب ومباشرة اللذات فاستهل:

لِيهْنِكَ أنْ أحمَدْتَ عاقِبَةَ الفصْدِ   فـ للهِ مِنَّا أجْمَلُ الشُّكْرِ والحمْدِ

ولا شك في أن هذه البدايات بالمديح الخاص، تدل على محبة وصدق مشاعر ابن زيدون تجاه ممدوحه الذي أصبغ عليه نعمه، فأمن وظفر بالجاه العظيم وبلغ حاجته، وفي ذلك يقول:

لقد جُدتَ حتى ما بنفسي خصاصَةٌ   وأمّنْتَ حتّى ما بقلْبِي تَخَوُّفُ

ولولاكَ لم يسهُلِ من الدَّهْرِ جَـــانبٌ   ولا ذلَّ مُقْتادٌ ولا لانَ مَعْطِفُ

ومن خلال تتبعنا لديوان الشاعر نجد أن أفضل مدائح الشاعر من حيث الجودة، وصدق العاطفة، وأحكام البناء الفني، ما وقع بين عامي 441 ـ 463 وكلها قيلت في ظل بني عباد نتيجة لما اكتسبه من خبرة ومران، وأغلبها قيلت في المعتضد حتى أصبح حامل لواء الشعراء في عصره، وأميرهم في بلاطه الغاص بفحول الشعراء[4]

وفي سنة461 هـ توفي المعتضد فرثاه الشاعر بقصيدة توحي بحزنه وألمه لفقده، مشيرا إلى حبه ووفائه له فيقول:

أَعَبّادُ يا أَوْفَى المِلوكِ لقَدْ عَدَا   عَليكَ زَمَانٌ مِنْ سَجِيَّتِهِ الغَدْرِ

فالممدوح في نظر الشاعر أوفى الملوك وأفضلهم، ولا تخفى دلالة اسم التفضيل (أوفى)، ونداء القريب (أعبّاد) فالممدوح قريب من الشاعر حتى لو طواه الموت، ويخاطبه و"كأنه حي ويسمي موته هجراً، فيبدع في ذلك أيما إبداع لأنه ينقل العلاقة بينهما من موقف السيد والمسود إلى موقف الحب واستخدامه لمعجم الغزل (الوصل والهجر) في سياق الرثاء "يكشف عن عمق العلاقة بين

University of Benghazi
Faculty of Education Almarj

جامعة بنغازي
كلية التربية – المرج
ISSN 2518-5845

Global Libyan Journal

المجلة الليبية العالمية

العدد الواحد والخمسون / أبريل / 2021

الشاعر والمعتضد، وتتظاهر الأخبار التاريخية على إثبات عمق هذه العلاقة حقاً"، فيستمر في إلقاء السلام على قصره، فلا أحد يسمع صوته، فتنتابه حيرة، وتتناهبه الأسئلة المتكررة المعبرة عن قوة عواطفه تجاه ممدوحه،[15] التي توحي بأن الشاعر لم ولن ينسى ممدوحه، وقد غمره بإحسانه وأياديه الوافرة، فوصلت نعمه لكل رعيته وعبيده.

أَلا أيُّها المولَى الوَصُول عَبِيـــدَهُ　　　لقد رابَنَا أنْ يَتْلُو الصِّلَة الهَـجْـرُ

نُغَادِيكَ داعِينَا السَّلامُ كَعَـهْدِنا　　　فمَا يُسْمَعُ الدَّاعِي، ولا يُرْفَعُ السِّتْرُ

أَأَنْسَاكَ؟ لما يَنْأَ عَهْدٌ، وَلَوْ نَأَى　　　سَجِيْسُ اللَّيالِي لَمْ يَرِمْ نَفْسِي الذِّكْرُ

وَكَيْفَ بِنَسْيانٍ وقَدْ مَلَأَتْ يَدِي　　　جِسَامُ أيَادٍ مِنْكَ أيْسَــرُهَا الوَفْرُ؟

وبعد أن طوى الموت ما بينهما، يمم شطره نحو مليكه الجديد نافضاً عن ثيابه وقلبه غبار الأحزان، مستأنفاً حياته المعقودة بالسرور في ظلاله، وأي سرور وقد كُذِّبت أماني الأعداء، الذين ادعوا أنه هجا المعتضد أو فرح بموته، فحفظ للمعتمد هذا الصنيع، فتخلص يمدحه قائلاً:

ولَئِنْ كنتُ لمْ أشْكُـرْ لكَ المِنَنَ الَّتِي　　　تَمَلَّيْتُها تَتْرَى لأَوْبَقَنِي الكُفْــرُ

رأى فِي اخْتِصَاصِي ما رَأَيْتَ وزادَنِي　　　مَزِيَّةَ زُلْفَى مِنْ نَتَائِجِها الفَـخْرُ

وأرْغَـمَ فِي بِـرِّي أُنُوفَ عِصَـــــابَةٍ　　　لِقَاؤُهُم جَهْمٌ ولَحْظُهُمُ شَـــــزْرُ

لكَ الخَيْـرُ، إنَّ الـرُّزْءَ كَــانَ غَيابَةً　　　طَلَعْتَ لَنَا فيها كمَا يَطْلُعُ البَدْرُ

فقَـرَّتْ عُيُـونٌ كانَ أسْخَنَهَا البُكا　　　وقَرتْ قُلُوبٌ كَـــانَ زَلْزَلَها الذُّعْرُ

وبعد أن تولى المعتمد الحكم، مدحه ابن زيدون بكثير المدائح وجرت بينهما المطارحات الشعرية كما استحدثا لونا من ألوان الشعر يعرف بفن المطيرات على شكل ألغاز شعرية حول أسماء الطيور[8]وقد كتب له المعتمد:

أيُّها المُنْحَطُّ عنِّي مَجْلِساً　　　ولهُ فِي القَلْبِ أعْلَــ ى مَجْلِسْ

بِفُؤادِي لكَ حُبٌّ يَقْتَضِي　　　أنْ تُرَى تُحْمَلُ فوقَ الأرْؤُسْ

فأجابه ابن زيدون:

أسَقِيطُ الطلِّ فوقَ النَّرْجِسِ،　　　أمْ نَسِيمُ الرَّوْضِ تَحتَ الحِنْدِسِ؟

أمْ نِظَــامُ لِلآلِ نَسِــــــــقٍ،　　　جَــامِعٍ كُلَّ خَطِيــــــرٍ مُنْفِسٍ؟

أمْ قَرِيْضٌ جَاءنِي عَــن مَلِكٍ　　　مَــالِكٍ بِالبِرِّ رِقَّ الأَنْفُــــسِ؟

وصاغ الأمير في الشاعر قصائد المدح والتبجيل، فبادله ابن زيدون إطراء بإطراء، فإذا أبطأ الشاعر عتب عليه الأمير، فمن هذا العتاب قول المعتمد:

وعَدْتَ وَأَخْلَفْتَنِي المؤعِدَا   وخَالَفْتَ بالمُنْتَهَى المُبْتَدَا
وأَطْمَعْتَنِي ثُمَّ أيْأَسْـــتَنِي   ويَمْنَعُنِي الوُدَّ أنْ أحْـقِدَا
وعَادَ ضِيَاءُ ارْتِقَابِي ظَلامًا   وأصْبَحَ مِصْباحُهُ أرْمَدَا

فأجابه ابن زيدون في قصيدة منها:

وطـاعَةُ أمْرِكَ فَـــــرْضٌ أراهُ   مِنْ كُلِّ مُفْتَرَضٍ أوْكَـــدَا
هي الشَّرْعُ أصْبَحَ دِينَ الضَّمِيرِ   فَلَو قد عَصاكَ لقدْ أَلحَدَا

وكان المعتمد أكثر حفاوة وحباً وإكراماً بابن زيدون من المعتضد، وقد استفاضت نفس شاعرنا بحبه، وتأثرت بهذه الصلة الوثيقة التي عقدها المعتمد بينهما، فأية علة يكابدها ما دام المعتمد بجانبه؟ فقال، شاكراً زيارته له في علته:

لَستُ بالجَـاحِدِ آلاءِ العِلَلْ   كَمْ لَهَا مِنْ ألَمٍ يُــــدْنِي الأمَلْ
أجْتَلِي مِنْ أجْلِها بَدْرَ العُـلا   مُشْرِقاً في مَنْزِلِي حِينَ كَمَـــــلْ
ما أُبَالي مِنْ زَمَانِي بَعْــــدَهَا   إذ أصَحَّ النَّفسَ إنْ جِسمِي أعَلْ
أيُّها المؤلَى لقد حُمِّلْـــتُ ما   لَمْ يَدَعْ في وُسْعِ عبْدٍ مُحْتَــمَلْ
وضح الطوق الذي حليتني   فتراءته نفـــــوس لا مقـــــل
أنَا لو طُوِّقْتُ مِنهُ بَـــدَلاً   أنْجُمَ الجَوْزاءِ لَمْ أرْضَ البَـــــدَلْ
كمْ مَرَادٍ لِي مِنْ نَعْـمَائِكُمْ   وارِفِ الظِّلِّ وكَـــــمْ وِرْدِ عَـلَلْ

وكان خصوم الشاعر وحساده يعرفون أن المعتمد ينفعل للشعر انفعالاً قوياً؛ فدسوا للمعتمد رقعة سطروا فيها قصيدة طويلة أغروه فيها بالفتك بشاعره الكبير، قالوا في بدايتها:

يأَيُّها المَلِكُ العَلِيُّ الأعْظَـمُ   إقْطَعْ وريدَيْ كُـلِّ بَاغٍ يَنْئِمُ
واحْسِمْ بِسَيْفِك داءَ كُلِّ مُنَافِقٍ   يُبْدِي الجَمِيلَ وضِدَّ ذلِكَ يَكْتِمُ

وذكروه بأن الشاعر هجا أباه وأن هذا الهجاء أصبح على كل لسان؛ والتساهل في مثل هذه المواقف خطير، فرب لفظة عابرة جلبت شراً كبيراً قائلين له:

لا تَحْقِـرَنَّ من الكَـلَامِ قَلِيْلَـهُ   إنَّ الكَـلامِ لَهُ سُيُـوْفِ تَكْلِمُ

والمِلْكُ يَحْمِي مُلْكَهُ مِنْ لَفْظَـةٍ   تَسْرِي فَتُجْلَى عَنْ دَواءٍ تَعْظُمُ

لا تَتْرُكَنْ للنَّاسِ مَوْضِـعَ شُبْهَةٍ   واحْزِمْ فَمِثْلُكَ فِي العَظَائِمِ أحْزَمُ

قد قَالَ شَاعِرُ كِنْدَةٍ فِيمَا مَضَى   بَيْتًا عَلَى مَـرِّ اللَيَـالِي يُعْـــلَمُ

لا يَسْلَمُ الشَّرَفُ الرَّفِيعُ مِنَ الأذَى   حتى يُراقَ على جَـوَانِبِهِ الـــدَّمُ

ولكن الأمير كان أعرف بشاعره، وأرعى لأستاذه، فأعرض عن هذه التهمة الرخيصة وأظهر وفاءً عظيماً، فأقره على ما كان عليه في عهد أبيه، قال مكذباً الوشاة:

كذَبَتْ مُنَاكُمْ صَرِّحُوا أو جَمْجِمُوا   الدِّينُ أمتَـنُ والسَّجِيَّة أكْرَمُ

خُنْتُمْ ورُمْتُمْ أنْ أخَـــونَ، وإنَّمَا   حاوَلْتُـمُو أنْ يُسْتَخفَّ يَلَمْلمُ

إلى آخر القصيدة، فهز هذا الموقف نفسَ الشاعر فنظم قصيدة مسهبة مادحا وشاكراً هذا الصنيع، استهلها بمقدمة فلسفية، ثم انتقل إلى كيد الحاقدين، وفطنة الأمير وأريحيته فقال:

قُلْ لِلْبُغَاةِ المُبْغِضِـينَ قِسِيَّهُمْ   سَتَرَوْنَ مَنْ تُصْمِيهِ تِلْكَ الأسْهُمُ

ثم انطلق في مدح الأمير فخلع عليه أسمى صفات الإطراء وأبدع آيات الثناء، ثم وصف موقفه وحزمه من هؤلاء الدساسين فقال:

لِي منكَ . فَلْيَذُبِ الحَسُودُ تلَظِّيًا   لُطْفُ المكانَة والمحَـلُّ الأكْــــرَمُ

لم تُلفَ صَاغِيَتِي لدَيْكَ مُضَاعَةً   كلَّا، ولا خَفِي اصْطِنِاعِي الأقْدَمُ

بَلْ أوْسَعَتْ حفْظًا وصِدْق رِعَايَةٍ   ذِمَـمٌ مُوَثَّـقَةُ العُرَا لا تُفْـصَــــمُ

وظل يمدحه إلى أن ختمها بقوله:

الفَخْرُ ثَغْرٌ عن حِفَاظِكَ باسِمٌ   والمجْدُ بُرْدٌ مِنْ وفائِكَ مُعْلَمُ

فاسْلَمْ مَدَى الدُّنيا فأنْتَ جَمَالُهَا   وتَسوَّغِ النُّعْمى فأنَّكَ مُنْعِمُ

ويبدو أن المطارحات الشعرية التي دارت بين الشاعر والمعتمد على شكل مساجلات وألغاز وأحاجي، جاءت بعد أن تقدم بالشاعر العمر، ويئس من وصال ولادة، فأخذ يعزف على وتر هذه القصائد، يتسلى بها معه صديقه، ولذلك جاءت جل مدائحه للمعتمد خالية من المقدمة الغزلية، بالإضافة إلى كثرة الحروب التي خاضها المعتمد والتي حالفه النصر في أغلبها، فسجل الشاعر هذه الانتصارات، فبدأ قصائده بتهنئة ممدوحه؛ ونظراً لجلل الحادثة وشرف المناسبة، فالنفوس في مثل هذه المناسبات لا

يلفت انتباهها مقدمة ولو كانت غزلاً؛ لأنها متطلعة إلى ما يشبع فضولها بمعرفة أخبار المعركة، أو تلك الحادثة[18]، وفي هذه المقدمات، إثبات للشاعر لمقدرته الشعرية على التصرف في طرائق المدح كافة بين ممدوحيه، ومن تلك البدايات المدحية الآسرة ما قاله ابن زيدون في مدح المعتمد بعد عودته إلى إشبيلية ظافراً من بعض الحروب:

أيها الظافر أبشر بالظفر؛ واجتَلِ التأييدَ في أبهى الصور

ورد الشاعر على قصيدة للمعتمد استهلها بقوله:

أفاضَ سماحُكَ بحْرَ النَّدى وأقْبسَ هَدْيُكَ نُورَ الهُدى

قال يشكر المعتمد بعد عيادته له في مرض ألمَّ به:

لست بالجاحد آلاء العللْ مشرقاً في منزلي حين كمل

وكتب إليه يشوقه إلى تعاطي الحميا في قصوره البديعة التي منها المبارك والثريا مستهلاً:

فز بالنَّجاحِ، واحْرِزِ الإقبالا وحُزْ المنى، وتنجَّـــزْ الآمالا

وَلْيَهْنِكَ التَّأْييدُ والظَّفْرُ اللَّذا صَدَقَاكَ . في اَلْسِمَةِ العَلِيَّةِ . فالا

يأيُّها الملـــكُ الّذي لولاهُ لمْ تَجِدِ العُقُولُ النَّاشـداتُ كَمَالا

وكتب إلى المعتمد هذه القصيدة المطيرة:

يا أيها الظافِرُ نِلْتَ المنى ولا ينَلْنا فيكَ محْذورُ

عاد المعتمد من سفر وقد أبلَّ من مرض، فهنَّأه الشاعر بالعودة والشفاء:

اقدمْ كما قدِمَ الرَّبيعُ الباكِرُ واطْلُعِ كما طَلَعَ الصَّباحُ الزَّاهِرُ

2 . خاتمة القصيدة في مدائح ابن زيدون:

اهتم النقاد القدامى بخاتمة القصيدة وأكدوا ضرورة اعتناء الشعراء بها، ووجوب تجويدها؛ لأنها قاعدة القصيدة، وآخر ما يبقى منها في السمع فإن حسنت حسن الكلام بها، وإن قبحت قبح، وإذا كان أول الشعر مفتاحه، فإن الخاتمة قفله[19]لذا أوجبوا الاحتراز من وقوع لفظ كريه أو منفر في تضاعيفها، كما كرهوا أن تختتم القصيدة بالدعاء . إلا للملوك فإنهم يشتهون ذلك، . لأن الدعاء من عمل أهل الضعف.[19]، ولما كانت أغلب مدائح ابن زيدون موجهة للملوك فقد حرص على تحسين خاتمة قصائده بما يثير انفعالاتهم، ويهز اريحيتهم، ليكون ذلك آخر ما يصحب الممدوح، ويلصق بنفسه، ويعلق بخاطره؛ فيكون عاملاً يدفعه لاتخاذ الموقف المناسب الذي يرمي إليه الشاعر من خلال مدحه. [20]وليس أقدر على إثارة انفعالات الممدوح من الدعاء له بالخير والعزة ودوام الأجل والملك وتحقيق الأهداف والآمال، والنصر على الأعداء، كقول ابن زيدون في خاتمة قصيدته الدالية في المعتضد بن عباد، حيث يدعو بأن يدخر الله له من الحظوظ أسعدها وأبقاها، فلا ينتهي له نعيم ولا ينفد له صفاء:

لا تعْدمَنَّ من الحظُوظِ ذَخيرةً تبقى، فلا يتْلُو البقاءَ نفادُ

ويختم ابن زيدون قصيدته الحائية في المعتضد، بالثناء والشكر قائلاً ما أكرمك من مانح للنعم والهبات، وما أعظم شأني بما دبجته فيك من مدح وثناء:

فحسْبي أنتَ ـ من مُسْدٍ لِنُعمى ـ وحسْبُكَ بي بِشُكْرٍ وامتداح

واختتم الشاعر إحدى قصائده في لمعتضد، معترفاً بنعم ممدوحه، التي كانت سر سعادته:

فالدَّهرُ مُعترفٌ بأنَّا لمْ نكُـــــنْ لِنُسرَّ منهُ ـ بِساعــةٍ ـ لولاكا

ومن القصائد التي ختمها بالدعاء، قوله في المعتضد وابنه:

وأُعْطيتما ـ فيما تُريغَانِهِ ـ الرِّضى، وبُلِّغْتُما ـ مما تُريدانِهِ ـ المدَى

فيدعو الله أن يهبهما الآمال، ويبلغهما أقصى الغايات. ويختم الشاعر قصيدته الفائية في مدح المعتضد بقوله:

وكم نِعْمةٍ أُلْبِسْتُها سُندسِيَّةٍ أُسرْبَلُها في كلِّ حينٍ وأُلْحِــــــفُ

مواهِبُ فيَّاضَ اليدينِ، كأنما منَ المُزْنِ تُمرى أو منَ البحْرِ تُغْرفُ

فَإنْ أَكُ عبداً قدْ تملَّكْتَ رِقَّهُ فأرْفَعُ أحْـــــوالي وأسْنى وأشْرفُ

فالشاعر يعدد نعم الممدوح عليه فقد خلع عليه النعم السوابغ كأنها حلل حريرية أُلبسها فجرر ذيول التيه والخيلاء، حتى كأنه أسر بإحسان ممدوحه فصار عبداً له، فهي أشرف الآمال التي يصبو إليها.

ولم تختلف خواتيم مدائحه للمعتمد إذ تدور كلها حول الدعاء والثناء، كقوله:

فاسْلَمْ مدى الدنيا، فأنتَ جمالُها وتسوَّغِ النُّعمى، فإنكَ مُنعِمُ

فكمْ بوَّأتني ساحـــــاتِ نُعمى عِذابِ الوِرْدِ وارفةِ الظـــلالِ

فالشاعر غمر بآلاء ممدوحه وأحله فسيح نعمائه فورد عنده أطيب مورد ونعم بأوفر الظلال.

أما مدائحه في صديقه أبي الوليد فقد كانت ـ كما ذكرنا ـ تدور حول طلب المنصب والجاه، فلا تكاد تخلو قصيدة من قصائده فيه" من الإشارة إلى مطلب السلطة، ...حيث يطيل في بيان خصال الممدوح ثم يأتي في القسم الأخير من القصيدة ويحدث عن نفسه وعن قدراته التي تؤهله لمنصب من مناصب السلطة مشيداً بما يتحلى به من علم تنوعت فنونه" [21] فانظر إلى ختام أول قصيدة له في أبي الوليد كيف كان ملحاً في طلبه ملتمساً وزارة الرأي والمشورة:

فرِحُ الريـــــاسة إذ ملكت عــنانها فرح العروس بصحة الإمـــــلاك

قَلِّدْنِي الـــــرَّأْيَ الجَمِيْــــــلَ، فإنَّهُ حَسْبِي لِيَومِـــيْ زِيْنَةٍ وَعِــرَاكِ

دامتْ حياتُكَ ما استُدِمْتَ، فلمْ تزلْ   تحيا بِكَ الأخطارُ بَعْدَ هــــلاكِ

ويختتم الشاعر قصيدته الدالية في أبي الوليد، مؤكدا أنه لا يسعى إلى كسب المال بل يسعى إلى منصب رفيع من مناصب الدولة" ويقدم بين يدي الممدوح ما يدعم مطلبه من بيان فضل العلم والحكمة"[21] ويرى أنه سيف لا ينبو، إشارة إلى حصافة رأيه، فيقول:

فديتُكَ أنِّي قائِـــلٌ فَمُعَـــرِّضٌ   بأوطَارِ نفْسٍ مِنـــكَ لم تقْضِها بَعْدُ

أمثلي غُفْلٌ، خاملُ الذّكرِ ضائعٌ،   ضياعَ الحسامِ العَضْبِ، أصْدأهُ الغِمدُ

أنا السّيفُ لا يَنْبو مَعَ الهزّ غَرْبُهُ   إذا ما نَبَا السّيْفُ الذي تَطبــعُ الهِنْد

لَعَمْرُكَ ما لِلْمالِ أسْعى، فإنَّما   يرى المالَ أسْنى حظِّهِ الطَّبعُ الوغْـــــــدُ

بدَأتَ بنُعـــمَى غضَّةٍ، إنْ تواهِا،   فحُسْــنِ الأولى، أنْ يُواليَها سَـــرْدُ

ولكنْ لحـــالٍ، إنْ لَبِستُ جَمَالَها،   كسؤتُكَ ثوبَ النُّصْحِ، أعلامه الحمدُ

أتَتْكَ القوافي، شاهداتٍ بما صفا   من الغيبِ، فاقْبلها، فما غرَّكَ الشّهْدُ

لَيحظـــى وليٌّ، سِرَّهُ وفْقُ جَهْرِه،   فظاهِــــرُهُ شُكْــرٌ، وباطِنُـــهُ وُدُّ

يُمَيِّزُهُ، مِمنْ سِـــــواهُ، وفـــاؤهُ   وإخْـــــلاصُهُ، إذْ كلُّ غانيةٍ هِنْـــدُ

فالشاعر في ختام هذه القصيدة يترقب آمالا كثيرة من ممدوحه متسائلاً، أمثلي على سمو مكانته وحدة ذكائه يترك مهملاً منبوذاً ضائعاً كما يضيع الحسام الصدئ إذا طال لبثه في قرابه، وإذا كنت قد بدأت بنعم شهية فأتبعها بأمثالها، فأنا لا أسعى للمال فهو أقصى غايات السفلة، وإنما أسعى لبلوغ منزلة سامية، وهذه قصائدي في الثناء عليك شاهدة على ما أكنه لك من حب وولاء فظاهره إطراء لك وباطنه معبر عن حب وإخلاص.

ويختم قصيدته البائية في مدح أبي الوليد مازجاً بين طلب المكانة والإشادة بثقافته وشعره الذي لا يضاهيه فيه أحد لأنه أسد في هذا المجال وغيره يطن كالذباب:

فثِقْ بِهِزَبرِ الشِّعرِ واصْفحْ عن الورى   فإنَّـهم ، إلاَّ الأقــلَّ، ذُبابُ

وَ لاَ تعـدِلِ المُثْنينَ بي، فأنا الذي   إذا حضرَ العُقْمُ الشواردُ غـابوا

ينـوبُ عن المـدَّاحِ منّي واحدٌ،   جميعُ الخِصالِ، ليسَ عنه مَنابُ

فَعُدْ بيَد بَيْضاء يَصْدَعُ صِدْقُها   فإنَّ أرَاجِيفَ العُـدَاة كِـــــذابُ

وحَاشَاكَ مِنْ أنْ تُستَـــمرّ مَريرَةٌ   لِعَهْدِكَ أوْ يُخْفَى عَلَيْكَ صَوَابُ

وعلى هذه الشاكلة يختتم ابن زيدون كل قصائده في أبي الوليد، حيث يشيد بمدحه في أغلب القصيدة، ثم يجعل القسم الأخير للإشادة بشعره، فيرى من خلاله أنه المستحق لأعلى مكانة وحظوة عنده، كقوله:

لأَمَّنْتني الخَطْبَ الذي أنا خـــائفٌ   وبلَّغْتني الحظَّ الَّـــذي أنا آمِلُ

وأسْديت عُــرْفاً منـــكَ ألهم همتي   فها أنا لا غفْلٌ ولا أنت غافــلُ

أرَى خاطِري كالصَّارِمِ العضْبِ لم يزلْ   لهُ شاحِذٌ من حُسْنِ رَأيكَ صاقِلُ

ومَا الشّعْرُ مما أدَّعيـــهِ فضيـــلةً   تزينُ، ولكن أنْطَقَتْني الفواضِـــلُ

بقِيْتَ كما تبقـــى مَعَاليكَ!! إنها   خَوالِدُ، حِينَ العَيْشُ كالظِّـلِّ زائلُ

فما نستزيـــدُ اللهَ بعْـــدُ نِهايةً   لِنفْسِكَ غيرَ الخلْدِ إذْ أنْتَ كامِـلُ

أما قصائده في أبي الحزم، فتأتي خاتمتها منسجمة مع الاستعطاف، فبعد أن ضاق به الحال في غياهب السجن طلب منه تذليل الصعاب وفتحه باب الأمل، واخراجه من محنته، فختم القصيدة بقوله:

كم ضاقَ بي منْ مذهبٍ في مطلبٍ   فثنيتَهُ فُسُحِ المجـــالَ رحيبا

وزكَا جَنـــابُ الشُّكرِ . حينَ مطرتهُ   بسحائبِ النُّعمى . فرِدْهُ خَصِيبا

ومتى سعَيـــتَ لنـــازحٍ مُتعـــذِّرٍ   فوجَدْتَهُ سَهْلَ المـــرامِ قَريباً

وأراد فيك مُرادكَ القـــدَرُ الذي   لا تسْتَطيـــعُ لِحُكْمِهِ تعقيبا

وقد جاءت خواتيم قصائده في أبي الحزم مناسبة لحالته الشعورية، والنفسية، فلم يوفق فيها، فاشتملت على كلمات منفرة، والتي من المفترض أن تكون أفضل بيتٍ في القصيدة، كذكره الفناء في قوله:

نَعِيمَ جَنَّةِ دُنيا، إنْ هيَ انصرَمَتْ   نَعِمْتَ بالخُلدِ في الجنَّاتِ والنَّهرِ

وأحياناً يقوم بتهديد ممدوحة . في خاتمة قصيدته . بأنه سيشد الرحال إلى من يحفظ كرامته ويعلي مكانته ويقدر قدرة متسائلاً في حيرة واضطراب: بِمَ أُجيب إذا سئلتُ عنك؟ فيقول:

سَيُغْنَى بِمَا ضَيّعتَ مِنّيَ حـــافِظٌ   ويُلفى لما أرْخصتَ من خَطرِي مُغْلي

أَينَ جوابٌ منكَ ترضى به العلا؟   إذا سألتْني به عنـــكَ أَلْسِنةُ الحفْلُ

ويختتم إحدى قصائده من السجن بقوله:

ومتى تبدأ الصَّنيعةَ يولِعْـــــ   ـــكَ تمامُ الخِصالِ بالتَّتميمِ

فالشاعر يتمنى على ممدوحه أن يتمَّ عليه نعمه كما كانت قبل المحنة.

وبعد أن فر الشاعر من السجن كتب إلى أستاذه أبي بكر مسلم بن أفلح النحوي رسالة مسهبة شرح فيها حالته، واتبعها بقصيدته الطائية، راجياً شفاعته لدى أبي الحزم، إلا أن الأمير بخل عليه بالشفاعة، فلم يعبأ الشاعر به، ولم تغره خيرات آتية ولا ملذات ذاهبة، إنما وكَّل أمره إلى خالقه الذي بيده الضر والنفع، فاختتم قصيدته بقوله:

وإن يأبَ إلا قبضَ مبسوطِ فَضْله ففي يد مولًى فوقه القبضُ والبسطُ

الصورة الشعرية:

الصورة الشعرية شكل تعبيري عما يجيش في نفس الشاعر أو الأديب من عواطف وأحاسيس وما يختلج ذهنه من أفكارٍ ومعانٍ، فيعمل على إيصالها إلى المتلقي، بشكل يجلب انتباهه ويثير ذائقته الفنية ويدفعه للتفاعل معها، ولا تتحقق هذه الغاية إلا من خلال توسل الشاعر أو الأديب اللغة وما تمنحه له ألفاظها وعباراتها من طاقات مشحونة ومكثفة وموحية بما يقصد التعبير عنه" وتكون متأثرة بحالة الأديب النفسية، إما بهيجة، وإما كئيبة"[22]. وقد تعددت صور ابن زيدون الشعرية في مدائحه وتنوعت أشكالها، في البلاطين العبادي والجهوري، ففي البلاط الجهوري ، استلهم ابن زيدون أغلب صوره من القران الكريم، وقصصه، فقد كان في البداية من رجال دولة أبي الحزم، وقد أسهم بدور رئيس في نشأة دولته ثم سخط عليه أبو الحزم فزجَّ به في السجن بفعل دسائس الوشاة الذين كانوا كإخوة يوسف ـ عليه السلام ـ حين ألقوا به في غيابات الجبِّ ، واتهموا الذئب زوراً وبهتاناً بدمه، يقول:

كَانَ الوُشَاةُ ـ وقَدْ مُنِيتُ بإفْكِهِمْ ـ أسْباطَ يَعقُوبٍ وكُنْتُ الذِّيْبَا

ولما كان السجن أعظم محنة تعرض لها الشاعر، استدعت مخيلته القصص التي تصور الآلام والمعاناة؛ لأن شعره كان صورة صادقة لكل معاناته من آلام وهموم، فكثر في شعره الاستعطاف، وطلب العون من الأصدقاء، ومن قصائده بعد هذه المحنة لاميته الشهيرة التي أشار فيها إلى الكثير من القصص القرآنية، ويذكر أن أمه زارته في سجنه، فلما رآها واهية الجفون لغزارة ما ذرفته من الدموع من شدة وجدها؛ ناجاها داعيا إياها إلى الصبر، وأن تتأسى بأم موسى التي رمت بابنها في اليم، فيقول:

وفي " أمِّ موسى" عِبرةٌ إذ رَمَتْ بِهِ إلى اليمِّ في التَّابُـــــوتِ ، فاعْتبِرِي واسْلِي

فالشاعر يشير إلى قصة سيدنا موسى الواردة في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (القصص:37) ويمضي في قصيدته مستعطفاً معترفاً بخطيئته التي يعتبرها هفوة أو نزوة الصبا، ويرى أنه لم يرتكب جرماً كبيراً يقتضي هذه المدة الطويلة في السجن، مشيراً إلى أنه لم يثر حرب الفجار التي اقتتل فيها العرب في الأشهر الحرم، ولم يتبع مسيلمة الكذاب الذي ادّعى النبوة، طالباً من أبي الحزم العفو والغفران، فيقول:

ولَو أنَّني واقَعْتُ عَمدًا خَطِيْئَةً لما كَانَ بِدْعاً مِنْ سَجَايَاكَ أنْ تُمْلِي

فَلَمْ أسْتَثِرْ حَرْبَ الفِجَارِ وَلَمْ أطِعْ مُسَيْلِمَةً إذْ قالَ إنِّي مِنَ الرُّسْـلِ

ثم يخاطب ممدوحه في حيرة متسائلاً ماذا أفعل بمديحي لك وثنائي عليك، أأبدله بهجاء؟ فأكون ناقضاً للعهود بعد قوتها وتوكيدها، فأكون كالتي نقضت غزلها بعد قوة نسجه ، متأثرا بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا﴾ (النحل:92)، قائلاً معبراً عن معاناته:

أَأَنْكُثُ فِيكَ المِدْحَ مِنْ بَعْدِ قوةٍ ولا أَقْتَدِي إلَّا بِناقِضَةِ الغَزْلِ؟

ويمضي الشاعر في استلهام القصص القرآني، فكما زادت محنته ازداد استدعاؤه للقص القرآني كقوله مستعطفاً أبي الحزم:

نارُ بَغْيٍ سَرى إلى جَنَّةِ الأمْنِ لظَاهَا فأصْبحَتْ كالصَّرِيْمِ

بِأبِي أنْتَ !! إنْ تَشَأْ تَكُ بَرْداً وسَلاماً كنـــارِ إبراهيمِ

فأول ما يلفت الانتباه في البيت الأول، هو استحضار الشاعر لقصة أصحاب الجنة الواردة في قوله تعالى: "فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ، فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ القلم 19. 20،فكأنه يقارن بين حاله قبل سجنه وبعده، فتحول من جنة إلى جحيم؛ لأنه لم يحافظ على ما أنعم الله عليه، فارتكب خطأً صيره إلى السجن، ويشير في البيت الثاني إلى قصة سيدنا إبراهيم الذي ألقى به قومه في النار ؛ ليحرقوه فأنقذه الله منها بأن جعلها برداً وسلاماً عليه، قال تعالى: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ (الأنبياء:69) مصوراً ما يتحلى به أبو الحزم من سمات القوة والهيبة كأنه أراد القول بأن عطفك يحول نكبتي إلى جنة، ويبدل محنتي سروراً، مثلما تبدلت حرارة النار ولهيبها جنة ونعيما على سيدنا إبراهيم بأمر إلهي. وقد برّر الشاعر فراره من السجن، بفرار سيدنا موسى حين فر من القبط، وهو بذلك ينفي عن فعلته خروجه عن المألوف، طالما أن هناك فعلاً مماثلاً شكّل القدوة له فقال:

فَرَرْتُ ، فإنْ قالُوا الفِرَارُ إِرَابَةٌ فقد فرّ موسى حين همّ به القِبْطُ

إشارةً إلى قوله تعالى على لسان موسى لما فرَّ إلى مدين؛ خوفاً على نفسه من القتل: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (الشعراء:21).

ولعل من أهم الصور التي تداعت إلى مخيلة الشاعر صورة الكرم وما يتفرع عنها فيقول في مدح أبي الوليد بن جهور، مشبهاً نفسه بغرس نابت في ثرى العلياء يروى من ري ممدوحه، فإن أبطأت عنه سقياه أدركه الذبول:

أنا غرسٌ في ثرى العلياء لو أبطأتْ سُقْياكَ عنهُ لذَبلْ

ويقول مخاطباً أبا الوليد بن جهور:

بدَأتَ بِنعمى غضَّةٍ، إنْ توالها فَحُسْنُ الآلي أن تواليها سرْدُ

فالشاعر يطلب منه الاستمرار في عطائه له وتوالي نعمائه عليه فيشبه هذه النعم حينما تتتابع وتطرد باللآلئ المنتظمة في عقد مسرود، وهو صورة تبعث في نفس الممدوح البهجة وتحثه على العطاء. ومن الصور الموروثة التي صيغت صياغة جديدة طريفة، قول ابن زيدون

وإن يكُ في أهلِ الزمانِ مُؤمَّلُ   فأنت الشرابُ العَذْبُ وهو سرابُ

إذ سيطرت على الشاعر هنا فكرة السراب التي وردت في قوله تعالى: ﴿والذين كفروا أعمالهم كسرابٍ بقيعة يحسبه الظمئان ماء ﴾، فصاغ تجربته وحياً معبراً عن عاطفته وانفعاله إزاء ممدوحه، فهو معقد رجائه، ومنتهى أمله، وأنه إذا كان ثمة رجل مؤمل في هذه الدنيا، فإن ممدوحه هو محط الآمال، فكأنه الشراب العذب الذي تتوق إليه نفس الظمآن ومن دون سراب خادع.

أما في البلاط العبادي، فالصور التي تتداعى إلى مخيلة الشاعر وتحظى باهتمامه، ويلح في طلبها فهي صورة الممدوح القائد الشجاع في ساحة القتال، وما يتصل بها من وصف الحرب وأدواتها ومراكب الغزو، والتحام الجيوش، وفتح المدن وتحقيق النصر والإشادة بالممدوح ومنزلته وارتقاء مدارج المجد والسيادة على يديه، ومما يوضح ذلك قوله:

غدا بخميسٍ يُقـسمُ الغيـــمَ إنه   لأخفـلُ منه مُكْفَهِرّاً وأكـنف

وعُدنا إلى القصر الذي هو كعبةٌ   يُغاديه منّا ناظرٌ أو مــــطوِّفُ

فإذْ نحنُ طالعنا هُ والأُفُقُ لابـس   عَجَاجَتَهُ والأرضُ بالخيلِ ترجُفُ

رأيناك في أعلى المصــلّى كأنّما   تطلّع من محـــرابِ داوُدَ يُوسُفُ

فهي صورة رائعة لوصف جيوش الأمير التي ملأت الجو بالغبار بما تثيره سنابك الخيول، وترتج الأرض من وقعها المدوي كالرعد، إلا أن هذه الصورة القاتمة المظلمة، تضاء بإطلالة المعتضد من محرابه بوجهه المشرق في وضاءة سيدنا يوسف عليه السلام. ولم يوظف ابن زيدون الصورة المستوحاة من القرآن الكريم في البلاط العبادي إلا في مواضع قليلة، وقد جاءت في تصوير قوة جيش ممدوحه، كقوله:

فإنْ يَكْفروا النُّعمى فتلك ديارُهُم   بِسيفِكَ قاعٌ صفصفُ الرَّسمِ تنسفُ

فالأمير هاجم أعداءه الذين كفروا بنعمته فخرب أوطانهم، ودك حصونهم فسواها بالتراب، فأصبحت قفرٌ، في إشارة إلى قول الله تعالى واصفاً أهوال القيامة وما فيها من الزلازل، فكيف يزيلها الله ويقلعها من أماكنها فتكون كالعهن: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً ۝ فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً ۝ لاَّ تَرَى فِيهَا عِوَجاً وَلا أَمْتاً ۝ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلاَ تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْساً﴾ سورة طه:(105-108)، ومن الصورة الشعرية قوله في مدح المعتضد:

شَيْحانُ مُنغَمِسُ السِّنانِ مِنَ العِدا   في النَّقْعِ حيثُ تَغَلْغَلَ الأحقادُ

تشكو إليهِ الشَّمسُ نقْـــعَ كتيبةٍ   ما زالَ منــهُ لعَيْنِها إرمــــــادُ

فالشاعر يشيد باندفاع ممدوحه إلى ميادين القتال بكل حمية وحزم غامساً سنان رمحه في صدور أعدائه التي تفيض بالغل والضغائن، وأن جيوشه تثير الغبار فيصيب الشمس بالرمد فتضرع بالشكوى إلى الأمير. كما شكل ابن زيدون صورته الشعرية من خلال توظيف الشخصيات التاريخية، لكنه منحها طابع الجدة، فيبالغ في المدح رابطا بين الحقيقة التاريخية المتمثلة في شخصية سجاح الفتاة المسيحية التي ادعت النبوة بعد وفاة الرسول ﷺ، وما يود أن يثبته لممدوحه من استحقاق للملك، بالإضافة لما تمنحه

هذه الشخصية من إيحاءات شعورية تضع الممدوح في منزلة سامية تجعل من يعتقد الرياسة في غيره من الملوك كالمرتد المعتقد في نبوة سجاح:

ومعتقِدُ الرِّياسةِ في سِواهُ كمُعْتقِدِ النَّبوةِ في سجَاحِ

ومن الصور الشعرية التي تصف قوة المعتضد، ما سجله ابن زيدون عندما نشبت حروب طاحنة بين المعتضد بن عباد والمظفر بن الأفطس والتي انتهت بانتصار المعتضد، وتعد القصيدة من شعر الحماسة والمدح، تذكرنا بمدائح أبي تمام في المعتصم، حيث تدور قصيدة كلها حول أحداث المعركة، كقوله:

أعادَ الصَّباحَ الطَّلْقَ ليلاً عليهم فحارَ وثنَّى ناظِرَ الشمس أرْمـــدا

فجلَّ هلالاً . في ظلامِ عجاجةٍ . تلاحِظهُ الأقمارُ . في الأفق . حُسَّدا

فالممدوح قلب الصباح المشرق فأعاده ليلاً مظلماً على أعدائه بما أثاره من غبار المعركة، فأشرق عليهم الممدوح بوجه منير كالبدر. ومن الصور الرائعة التي رسمها لمعتمد قوله:

قمرٌ جابَ غيمَ النَّـــ ـــقعِ فالهالةُ مِغْفرْ

فالأمير مثل البدر إذا صال في غبار الحرب، فإن الضوء المشع من وجهه يقوم مقام الخوذة له في ساحة القتال. ويقول ابن زيدون في إحدى مدائحه للمعتمد:

قفلٌ وإبـلالٌ . عقيبَ مُطيفـــةٍ . غَشِيتْ كما غشِي السبيل العابرُ

إنْ أعنتْ الجِسْمَ المكرَّمُ وعْكها فلرُبَّما وُعِـــــكَ الهِزَبْرُ الخـــادِرُ

فالشاعر يهنئ ممدوحه بالعودة والشفاء من المرض محاولاً التخفيف والتيسير عليه فيشبه حاله إذ ذاك وقد نالته الحمى . وهو الأمير الشجاع القوي . بالأسد القوي الرابض في عرينه.

اللغة والأسلوب: جاءت ألفاظ ابن زيدون معبرة عن مكنوناته النفسية، ومواقفه، فغلب على معجمه الشعري في البلاط الجهوري ألفاظ الاستعطاف والشكوى، أما في البلاط العبادي والذي أحس فيه الشاعر بالأمن ونال مراده من السلطة فأثرت هذه الحظوة على ألفاظه وأساليبه، ولذلك سنتتبع بعض هذه الأساليب والألفاظ.

ألفاظ الشكوى والاستعطاف: أسهم بدور رئيس في نشأة دولة أبي الحزم ثم سجنه بفعل دسائس الوشاة، وبعد هذا الموقف بدأ الشاعر يستعطف أبا الحزم ليرقق قلبه، ويلين جانبه، ويستدر رحمته، فغلب على شعره الاستعطاف والشكوى وبكاء الحظِ، واصفاً حالته البائسة التي آل إليها، فاعتلى رأسه الشيب وهو في ريعان الشباب يقول الشاعر:

مالي ولِلأيَّامِ؟ لجَّ مع الصبـــا عُدوانُها فكسَا العِـذار مشيبا

محقت هِلالَ السِّنّ قبلَ تمامِهِ وذوى بها غُصنُ الشّبابِ رَطيبا

لأَلمَّ بي ما لو ألمَّ بشـــــاهقٍ   لأنهال جانبه فصـــــار كثيبا

وقد أثرت هذه النكبة على معجم ابن زيدون تأثيراً بالغاً، فغلب على شعره ألفاظ اليأس والألم كقوله: (ألمَّ، محقت، أنهال، ضاع، فرَّق، أسير، عذاب أليم، الأسى، الجور، قسا، مقتولة، هوى، الثكل، سهر، سمر، تحرق ، الخرق، الجراح ...)، وكذلك ألفاظ البكاء: (بكاء، الأجفان، يبكي، الغمام الباكي، مأتماً)، ومن ألفاظ الشفاعة:(الشفاعة الشفيع اشفع، اغفر، تشفع، الشافع، رجائي، العذر، هفوة، زلة، الذنب، الوزر)، ومن ألفاظ الذل: (الذليل، ذلي، الذل، موطئ، هنتُ، منحطا)، وقد كثر في معجمه ألفاظ العتمة المستمدة من السجن:(الغربيبا، الغمام، أنجم الليل، ذمام الليل، سواد الجون، سواد القلب)، وقد عرَّض الشاعر بمن حاول الإفساد بينه وبين ممدوحه، فغلب على شعره ذكر الوشاة والتعريض بهم في ظل أبي الحزم: (عدا سمعه عني وأصغى إلى العدى، منيتُ بإفكهم، قلوبهم مكامن أضغان، وقد وسموني بالتي لست أهلها، يولوني عرض الكراهة، لا يهنئ الشامت المرتاح خاطره، فوصف هؤلاء الوشاة بـ:(الوشاة، العداء، الواشون، الشامت، الواشي)، وقد كان أبو الحزم زاهداً عابداً؛ ولذلك غلب على شعره ألفاظ الزهد والعبادة: (المنيب، والمثاب، المعادي، الموالي)، ولما كان أبو الحزم مسالماً لم يخض معارك مع أعدائه، غلب على معجمه ألفاظ السلم والحكمة: (مذلل للمساعي، وزير سلم، فَسالمَ مَنْ كانَتْ لَهُ الحَرْبُ عَادَة، وَوَافَقَ مَنْ لَا شَـكٌّ فِي أَنَّهُ ضِـدٌّ، لَشَمَّرَ حتى انْجابَ عارِضُ فِتْنَةٍ).

الطباق: وهو الجمع بين الشيء وضده ، أو بين معنيين متقابلين في جملة[23]، وقد برز هذا اللون من البديع بروزاً ظاهراً في جهوريات ابن زيدون، ولعل ذلك راجع إلى محنة السجن التي تعرض لها الشاعر فوجد من خلال الطباق، المقارنة بين حياتين: حياة سعيدة وصل من خلالها إلى أعلى مناصب الدولة، كما وأستأثر بقلب ولادة، وحياة تعيسة ذاق من خلالها مرارة الاعتقال فزج به في السجن بعد أن كان من رجال الدولة، ولذلك كثر الطباق في شعره، كقوله: (معاديا ومواليا، الصِّبا مشيبا، الشاهق كثيبا، أضام نصيرا، معاقباً ومثيبا، فرق شملي، النثل والذل، العلم والجهل، الجور والعدل، نصري خذلي، الأنس وحشة، ضعت حافظ، ارخصت مغلي، ثقة حذر، وقد لجأ ابن زيدون إلى موازنة بين حاله ما قبل نكبته، وما آل إليها بعد من غياهب السجن

قد كنت أحسبني والنجم في قــــــرن   ففيم أصبحـت منحــطاً إلى العفـر

ألفاظ الرضى والإشادة بالنعم في ظل بني عباد:

نال الشاعر حاجته في ظل بني عباد، فعين في أرفع مناصب الدولة، وأصبح حامل لواء الشعراء في البلاط العبادي، فأصدق الشاعر في مدحه له، وبالغ في وصف بلاطه وقصوره، وبساتينه وجناته،" ومن ثم وجدناه لين الأسلوب، حلو العبارات، ينتقي العبارات المناسبة لتصوير الممدوح في أبهى الصور"[21] فاختفت الأنا الشاكية في شعره، والشكوى من الوشاة، فصدرت قصائده عن بواعث شعورية صادقة، فأكثر من المطولات التي تدور حول غرض المديح الخالص، ولعل من أهم الأساليب التي وصف بها بني عباد؛ كثرة النداء والإشادة بإسمائهم بِأيّها المِلِكُ، يا خَيرَ مُعْتَضِدٍ، أَعَبَّادُ يا أَوْفَى المِلوكِ، يَا بانِياً كُلَّ مَجْدِ، أيُّها المُنْحَطُّ عنّي مُجْلِسا، ألا أيُّها المولَى الوَصُول عَبِيدَهُ، يا أيُّها الملكُ الجليلُ، أيُّها المؤْلَى لقد حُمِّلتُ ما، يأَيُّها المِلِكُ العَلِيُّ الأَعْظَمَ أيها الظافر، يأَيُّها الملكُ الَّذي لولاهُ لمْ، يا أيها الظافِرُ نِلْتَ المنى. إلى غير ذلك من الأساليب، كما أنه لا تخلو قصيدة واحد من الحديث عن الأمن والإشادة بالنعم.

الخلاصة:

قصر ابن زيدون شعره على الملوك والأمراء، وأن أغلبه توزع بين بني جَهْور بقرطبة، وبني عباد بإشبيلية، فجَهْورياته قيلت في مرحلة التكوين والتطلع للسلطة والجاه ، وأغلبها قصائد قيلت من السجن يرسل بها إلى أبي الحزم، وإلى ابنه أبي الوليد، وهي قصائد يغلب عليها الاستعطاف والحنين والعتاب، والشكوى من الوشاة، يفخر فيها بأدبه، فهي أقرب إلى مدح ذاته، من مدحهم، وتبدو الأنا في شعره طاغية متكبرة، رافضة ،مفتخرة بذاته، وأحياناً نراها شاكية باكية، متذللة، فالشاعر في الطور الأول من حياته قلقاً طموحاً متوفز النفس، بعيد الأهواء؛ في ظل ملوك قرطبة الذين عرفوا بالوقار والتدين. وقد استدعى الشاعر أغلب صوره . في ظل أبي الحزم . من القرآن الكريم، فاستوحى قصة سيدنا يوسف عليه السلام، وقصة سيدنا إبراهم، وموسى، وقصة ريطة بنت عمرو بن كعب بن سعد القرشية ناقضة الغزل، وقد غلب على شعره في أبي الوليد طلب الجاه والسلطة ورأى أن شعره وثقافته وعلمه، هو المؤهل لهذا المنصب، فلا تكاد تخلو قصيدة له من المزج بين الطلب والإشادة بثقافته، ومن هذه الصور: لكَ الخَيْرُ، إنِّي واثقٌ بكَ شاكِرٌ/ بُشْرَاكِ يا دُنْيَا بُشْرَانَا مَعًا/ وَرَدْتُ مَعِينَ الطِّبعِ/ وَأَنْجَدَنِي عِلْمٌ تَوَالَتْ فُنُونُهُ/ فَعُدْ بِيَد بَيْضَاء يَصدَعُ صِدْقُها/ لَمْ أُوتَ في الحَالِ . مِنْ سعْيِي لدَيكَ/ لاَ تَسْتَجِزْ وضْعَ قـدْري بعْـدَ رفْعِكَهُ، إذ يدور الطلب حول الجاه والمنصب لا المال، ولذلك يقول:

لَعَمْرُكَ ما لِلْمالِ أسْعى، فإنَّما يرى المالَ أسْنى حظِّهِ الطَّبعُ الوغْـــــــدُ

أما في البلاط العبادي بإشبيليا، فقد جاءت العاطفة صادقة في شعره لهم مدحاً ورثاءً، فقد أحس بالأمن والإكرام وحظي بأعلى المناصب في هذا البلاط العبادي فنظم فيهم أصدق المدائح وأبدعها، ولم تظهر في شعره إلا أنا شاكرة راضية، وإذا كان ابن زيدون وقد بدأ أغلب مدائحه في بني جهور بغزل تقليدي فاتر، منتقلاً إلى مدحهم واصفاً تدينهم، و وقارهم، ومسالمتهم في الحروب، فإنه بدأ أغلب مدائحه في بني عباد بالمديح مباشرة، خارجاً فيه عن النهج التقليدي، مهنئاً وشاكراً وواصفاً انتصاراتهم وبطولاتهم ضد خصومهم، مستوحياً صور القوة والشجاعة والإقدام، ووصف بطولاتهم ومعاركهم الحامية الوطيس.

قائمة المصادر والمراجع

[1]: الصفدي، خليل ابن أيبك. (2000). "الوافي بالوفيات". تحقيق أحمد الأرناؤوط؛ وتركي مصطفى، بيروت:دار إحياء التراث العربي.

[2]: ابن خاقان، أبي نصر الفتح. (1989). "قلائد العقيان ومحاسن الأعيان". تحقيق حسين يوسف خربوش، الأردن: مكتبة المنار.

[3]: الركابي، جودت. (1975). "في الأدب الأندلسي".القاهرة: دار المعارف.

[4]: عبد العظيم، علي. (1955). "ابن زيدون عصره وحياته وأدبه". مصر :مكتبة الأنجلو المصرية.

[5]: ضيف، شوقي. (د/ت). "ابن زيدون". القاهرة: دار المعارف.

[6]: المقري، أحمد بن مُحَمَّد. (1988). "نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب". تحقيق إحسان عباس،بيروت :دار صادر .

[7]: ابن بسام، علي. (1997). "الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة". تحقيق إحسان عباس، بيروت :دار الثقافة.

[8]: ابن زيدون. (1957). "ديوان ابن زيدون ورسائله". شرح وتحقيق علي عبد العظيم، مصر: دار النهضة.

[9]: ابن بشكوال، خلف بن عبدالملك. (1989). "الصلة". تحقيق إبراهيم الأبياري، القاهرة: الكتاب المصري .

[10]: المراكشي، (1983). "البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب". بيروت: .

[11]: ابن الأبار، مُحَمَّد بن عبد الله. (1985). "الحلة السيراء". تحقيق حسين مؤنس، القاهرة : دار المعارف.

[12]: دوزي. (1933). "ملوك الطوائف ونظرات في تاريخ الإسلام" ترجمة كامل كيلاني، القاهرة: عيسى البابي الحلبي وشركاه .

[13]: سلامة، علي مُحَمَّد.(1989). "الأدب العربي في الأندلس تطوره موضوعاته وأشهر أعلامه". بيروت: الدار العربية للموسوعات

[14]: البستاني، بطرس. (1979). "أدباء العرب". بيروت : دار مارون عبود.

[15] : رومية، وهب. (2014). "شعر ابن زيدون قراءة جديدة". دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب.

[16]: حسن، حسن. (1955). "ابن زيدون عصره . حياته . أدبه". مصر:المطبعة المنيرية.

[17]: عزام، عبد الوهاب.(2012). "المعتمد بن عباد". القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة.

[18]: ابن الأثير ،ضياء الدين.(1960) "المثل السائد في أدب الكاتب والشاعر". تحقيق أحمد الحوفي، وبدوي طبانة، القاهرة: نهضة مصر.

[19]: ابن رشيق، الحسن.(1964). "العمدة في محاسن الشعر، وآدابه، ونقده". تحقيق مُحَمَّد محيي الدين عبد الحميد، مصر: المكتبة التجارة الكبرى.

[20]: ناجي، مجيد عبد الحميد. (1984)، "الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية". المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.

[21] : عويس، مُحَمَّد.(1986) "من قضايا الإنسان في الشعر الأندلسي". القاهرة: مطبعة الأنجلو المصرية.

[22] : بوزواوي، مُحَمَّد. (2003). "قاموس مصطلحات الأدب". الجزائر:دار مدني للطباعة والنشر والتوزيع.

[23]: الخطيب القزويني، جمال الدين.(1975). "الإيضاح في علوم البلاغة". تحقيق، مُحَمَّد عبد المنعم خفاجي، بيروت: دار الكتاب العربي.